كيف نحافظ على الدين ؟
فى هذا العصر

الجواب على هذا السؤال يجب أن يشغل المكان الأول من تفكير حماة الإسلام فى هذا العهد ، كما شغل حماة الأديان فى العالم الغربى طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين شد العلم عليها فأثبت لهم وهن أصولها ، وتداعى أركانها ، لقيامها كما زعموا على الخيالات التصورية الموروثة ، لا على القواعد العلمية اليقينية .

نعم إن السواد الأعظم من الناس هنالك لا يزالون متمسكين بالدين ، ولكن على حساب الإيمان بالتقليد ، لا على حساب الإيمان بالدليل ، وهى حالة يعتبرها خصوم الأديان عرضية لا تلبث حتى تزول يسيراً يسيرا .

ونحن فى الشرق قد جاءت نوبتنا ، بعد أن انتشر العلم فى ربوعنا ، وتسلطت فلسفته على عقولنا ، فماذا أعددنا لهما لحماية حقائقنا ؟

إن كل ما أعددناه من الأسلحة لمكافحتهما ، المنطق ، وقد حطمته الفلسفة الجديدة باعتبار أنه قائم على المسلمات العقلية ، وهذه المسلمات لم تعد لها قيمة إقناعية ، جريا على الأصل الفلسفى الراهن ، وهو : أن كل معقول لا يقوم عليه شاهد من المحسوسات لا يصح الاعتماد عليه فى التدليل ، لأنه هو نفسه بحاجة إلى دليل يثبته . فانتقل بذلك ميدان الكفاح من عالم المعقولات إلى عالم المحسوسات .

لا أريد بهذا أن أقول إن المسألة انتهت إلى مأزق لا مخرج منه ، ولكنى أريد به أن أنبه القائمين على المحافظة على الدين أننا بسبيل جهاد عنيف يجب أن تُستخدم فيه جميع الأسلحة العلمية ، وهى تحتاج إلى خبرة واسعة لاستعمالها ، ولباقة بالغة فى توجيهها .

إننا فى زمان أصبحت تُوَجه فيه الشبه إلى الأديان من المعامل العلمية مباشرة ، ومنها ما كان يظن أنه مقطوع الصلة بها ، كالمعامل البيولوجية والفيزيولوجية

والجيولوجية إلخ [١] ، وقد لقى رجال الدين فى العالم الغربى من هذه الشبهات أمرا إمْرا ، وافتتن بشبهاتهم كل من لهم مشاركة فى هذه العلوم ، فشالت كفة الدين ، ورجحت كفة الإلحاد ، وأيقن الناظرون هنالك أن عهد الدين قد انقضى ، ولا يرجى له من مَعاد .

إن هذا الدور من الصراع بين الدين والعلم قد وصل إلينا منذ عهد قريب بما حمله إلينا الغرب من علومه وفلسفته ؛ فأصبحنا ولا محيد لنا عن الدخول فيه . ومما يعتبر من حسن حظنا أن يوافق عهدُ دخولنا فى هذا الصراع ، عهدَ إفاقة للعلماء الكونيين من غرور علمى طال عليهم الأمد فيه ، إفاقة كشفت لهم أنهم كانوا مخدوعين بمقررات اعتبروها يقينيات حاصلة على جميع شروط الدليل الطبيعى المحسوس ، على حين أنها كانت لا تخلو من عنصر الافتراض ، وهو يدع الباب مفتوحا للتعديل والتحوير ، بل للتخلى عنها إن ظهر أن غيرها أجمعُ منها لهذه الشروط . وهذه حالة طأمنت من الخيلاء العلمية إلى مدى بعيد ، وأهابت بأهلها إلى إطالة التفكير . قال العلامة الكبير هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (العلم والافتراض) . . (La Science et l'hypothèse), par Henri Poincarè :

« الحقيقة العلمية فى نظر المتأمل السطحى تعتبر خارجة عن متناول الشكوك . وعنده أن المنطق العلمى غير قابل للنقض ، وأن العلماء إن أخطأوا أحيانا ، فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعده .

« والحقائق الرياضية فى نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ . وهى مفروضة ليس علينا فقط ، بل على الطبيعة أيضا ، مقيدة الخالق نفسه ، ولا تسمح له إلا باختيار حل من بين الحلول القليلة العدد قلة نسبية . فيكفينا والحالة هذه عدة تجارب لنعرف منها أى شىء قد اختار الخالق منها . ومن كل تجربة من هذه التجارب تنتج طائفة من نتائج رياضية على هذه الصورة ، تعرفنا كل واحدة منها زاوية مجهولة من زوايا الكون .

---

(١) البيولوجيا : علم الحياة ، والفيزيولوجيا : علم وظائف الأعضاء ، والجيولوجيا : علم طبقات الأرض .

« هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا ، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادئ علم الطبيعة . وهذا هو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو أيضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مئة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

« ولكن لما تروّى العلماء قليلا ولاحظوا مكان الافتراض من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك . حينئذاك سأل بعضهم بعضا قائلين : هل هذه المبانى العلمية على شىء من المتانة ؟ ثم تحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه صار سطحيا أيضا ، فإن الشك فى كل شىء أو الاعتقاد بكل شىء يعتبران حلين قليلى المؤنة ، فإن كلا منهما يعفينا من إعمال الروية » انتهى .

نقول : إن هذا القول قد يعده بعضهم جرأة غير محمودة ، وقد يعتبره آخرون شذوذا تدفع إليه حدة عصبية تغلب على مزاج صاحبه ، ولكن مثل هنرى بوانكاريه ، وهو مفخرة الأمة الفرنسية فى العلوم الرياضية ، لا يصح أن يتهم بهذه النقيصة ، لاسيما وليس هو بالمنفرد بهذه المزاعم ، فإن أركان النهضة العلمية كافة ، وهم من أجناس مختلفة ، يقولون بهذا الرأى نفسه . فإليك مثالا من ذلك : قال الأستاذ الكبير شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا بكلية الطب الباريزية ، والعضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتبها فى كتاب (الظواهر النفسية) للدكتور ماكسويل النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية ، قال فى صفحة ٧ .

« يجب على الإنسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى أن يعتقد بقوة أن هذا العلم فى عهدنا الراهن مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا . ثم قال فى صفحة ٩ منه :

« إن حواسنا من القصور والنقص على حال يكاد معها يفلت من شعورها الوجود كل الإفلات . فالقوة المغناطيسية العظيمة لم تُعرف إلا عرضا ، وإذا كان لم يوضع الحديد الحلو بجانب حجر المغناطيس اتفاقا ، كنا جهلنا دائما أن المغناطيس يجذب الحديد ، وما كان أحد منذ عشر سنين يحلم بوجود أشعة رنتجن (كتبت

هذه المقدمة فى سنة ١٩١٤) . وقبل أن تُكتشف الفوتوغرافيا كان لا يدرى أحد أن النور يؤثر فى أملاح الفضة ، ولم تكتشف الأمواج الهرتزية (نسبة إلى هرتز الطبيعى) إلا منذ ثلاثين سنة . ومنذ مائتى عام كان لا يُعرف عن القوة الكهربائية العظيمة إلا خاصة جذب الكهرمان إذا دلك بالصوف . ثم قال بعد ضربه الأمثال :

« لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن كل هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ليس فى حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا . والطبيعة الصحيحة للنواميس التى تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟ مثال ذلك أننا إذا ألقينا حجرا فى الهواء نراه يسقط إلى الأرض . فلماذا سقط ؟ يجيبنا نيوتن بقوله : سقط لجذب الأرض له جذبا مناسبا لمادته ، وللمسافة التى سقط منها . ولكن ما هو هذا الناموس إن لم يكن مجرد تحصيل حاصل ، وإلا فهل فهم أحد كنه تلك الذبذبة الجاذبة التى جعلت الحجر يسقط على الأرض ؟ إن ظاهرة سقوط حجر على الأرض من الشيوع بحيث لا تدهشنا . ولكن الحقيقة أنه لا يوجد عقل إنسانى فهم ذلك . إن هذه الظاهرة عادية وعامة ومقبولة ، ولكنها غير مفهومة ككل ظواهر الطبيعة بغير استثناء (تأمل) .

« نرى البيضة تُلقح فتصير جنينا ، ونرانا نصف أدوار هذه الظاهرة ، ونحن بين مخطئين ومصيبين فى الواقع ؛ ولكن هل فهمنا ، رغما عن وصفنا الدقيق لها ، سر ذلك التحول الذى يحدث فى البروتوبلاسما الخلوية فيقلبها إلى كائن حى عظيم ؟ بأى معجزة تحدث تلك التجزؤات ؟ ولماذا تتجمع تلك التحببات هنالك ؟ ولما تتهادم هنالك لتعيد تآلفها فى مكان آخر ؟

« ألا إننا نعيش فى وسط ظواهر تتوالى حولنا ولم نفهم سر واحدة منها فهما يليق بقيمتها ، حتى إن أكثرها بساطة لا يزال سرا من الأسرار المحجوبة كل الاحتجاب . فماذا يعنى اتحاد الايدروجين بالأوكسجين ؟ ومن الذى استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الاتحاد ، وهو يفضى إلى إبطال خواص الجسمين المتحدين ، وإيجاد جسم ثالث مخالف للأولين كل المخالفة ؟ إن العلماء لم يتفقوا للآن حتى على طبيعة الذرة المادية التى توصف بأنها ليس لها ثقل ، وهى مع ذلك تصير ذات ثقل متى اجتمع عدد كبير منها .

« الأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد ، فتواضعه يكون بسبب علمه بأن علومنا ضئيلة ، وجريئا (تأمل) لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه » انتهى .

هذا التحول العظيم لمذهب علماء الكون يعتبر فاتحة عهد جديد للعقلية العلمية ، سيكون من أثره حدوث انقلاب جلل فى الفلسفة مناسب له كل المناسبة . فبعد أن كان باب التحكم الإنكارى مفتوحا على مصراعيه ، ومدعوا بكل ضروب الإغراء إليه ، أصبح لا يستهوى إلا كل هزيل الروية ، قصير النظر . وهذا لا يعنى أن العقلية العلمية أصبحت سهلة القياد على الظنون والأوهام ، يمكن تحويلها من الإلحاد المستعصى إلى الإيمان المطلق بغير دليل محسوس ، أو حجة فى درجة العيان . لا ! فالأمر على العكس ، فإن ثبوت انخداعها فى عالم العلم ، وأدلته كانت من القوة بحيث تستهوى العقل ، يبعث فيها من خصلة التثبت ما تأمن معه أن تقع ثانية فى مثل ما كانت واقعة فيه من الغرور بالظواهر الخداعة ؛ فهى إذا كانت قبل اليوم مستعصية ومنيعة ، فهى اليوم أعصى وأكثر مناعة حيال كل ما ليس له دليل من الحس ، وما لا يمكن تحليله وتركيبه من المعلومات . فالكسب الوحيد الذى حصلت عليه الإنسانية هو أن العقلية العلمية أصبحت أكثر تواضعا أمام الوجود ، وأشد تلهفا على وجدان الحقيقة . فبعد أن كانت تحسب أن ليس وراء ما وقفت عنده من المحسوسات مذهب ، ولا بعد ما انتهت إليه منقلَب ، صارت تصرح كما يصرح العلامة الكيمائى الكبير السير وليم كروكس رئيس المجمع العلمى البريطانى كما جاء فى مجموع خطبه بصفحة ٨ :

« لست بآسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الإنسانية ، بل إنى أعتبرها منشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا ولا أحد سواى أهلا لأن نعين مقدما ما ليس بموجود فى الكون ، ولا أستطيع أنا ولا أحد غيرى أن نقول بأن شيئا بعينه لا يحصل حولنا فى كل يوم من أيام حياتنا . هذه العقيدة تحدث لى أملا قويا فى أن اكتشافا رئيسيا جديدا يمكن أن يحَدث فى مجال من المجالات فى أقل الأوقات تفكرا فيه » .

وكما تصرح العقلية العلمية الجديدة بلسان فيلسوف أمريكا الأكبر (وليم جيمس) المدرس بجامعة (هارفارد) كما جاء فى كتابه إرادة الاعتقاد

: La volontè de croire

« هل يعقل أن العلم ولم يمض على ميلاده إلا يوم واحد .... يستطيع أن يمثل لنا شيئا آخر غير صورة ضعيفة لما سيكون عليه الكون فى نظر الذين سيفهمونه على حقيقته فى يوم من الأيام ؟ كلا ! إن علمنا ليس إلا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر ، والأمر الوحيد الذى يمكن أن يقال بشىء من التأكيد هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم ندرك خواصه المكونة له إلى اليوم » .

وتصرح بلسان الأستاذ الجليل أوليفر لودج رئيس جامعة برمنجهام فى خطبة له فى المجمع العلمى ، وهو رئيس القسم الرياضى والطبيعى فيه :

« إن الذى نعلمه ليس بشىء إلى جانب ما يجب علينا أن نتعلمه ، وقد يقال ذلك أحيانا بلا اعتقاد ، أما بالنسبة إلىّ أنا فهى الحقيقة الحرفية . وإرادة قصر مباحثنا على المجالات التى افتتحناها نصف افتتاح ، يعتبر خيانة لعهود الرجال الذين كافحوا للحصول على حرية البحث ، وتخييبا لأقدس آمال العلم » .

هذه بضعة تصريحات لأقطاب العلم العصرى بعد إفاقتهم من دور الغرور الذى كانوا فيه ، ولو شئنا لأتينا على ملء مجلد ضخم منها .

نعم ، إن هذا التحول فى العقلية العلمية لا يعنى فى ذاته شيئا غير الترقى من عهد الانخداع بالظواهر ، إلى عهد الاعتراف بالجهل بالحقائق ، والتأهب لبحث كل ما يعرض للبحث ، ولو كان فيه قلب للأصول المقررة ؛ ولكن هذا وحده يعتبر انتقالا يفضى بالعلم إلى مكتشفات قد تُثبت للإنسانية أمورا تحن إلى إثباتها ، وتراها أكبر المعزيات فى تكاليف حياتها ؛ خلافا لما كانت عليه الحال ، من اعتبار كل ما ليس بمادة محسوسة خيالات عقلية لا وجود لها فى الخارج .

وقد اندفع ألوف من العلماء من كل جنس فى التسعين سنة الأخيرة فبحثوا على مقتضى الدستور العلمى فى الروح البشرية ، والعالم الروحانى ، مباحث عملية

تجريبية ، ووقفوا على مشاهدات ذات دلالات بعيدة المدى ، ودونوها فى مئات من المؤلفات بكل لغة ، ونشروها فى مجلات خاصة وعامة ، بل وفى جرائد يومية كثيرة أيضا ، يمكن أن تكون أدلة حسية على صحة أهم الأمور الاعتقادية فى الأديان . ولا يزال البحث مستمرا فيها ، ونتائجه الايجابية تزداد كل يوم كثرة . ولا همّ لهؤلاء العلماء إلا التحسس من المجاهيل الوجودية بعد أن مزقت اليقظة التى حصلوا عليها الحجب التى كانت مسدولة على أعينهم ، فاهتدوا إلى أمور خطيرة للغاية تؤيد المعتقدات الدينية تأييداً لا حدّ له .

وقد كان من نتائج هذه الحركة أن تألفت جماعات من العلماء تكافح النظريات المادية كفاحا لا هوادة فيه ، وبالأدلة المحسوسة . ونحن نعرض للقراء مدى ما بلغ اعتداد بعض العلماء بهذه النتائج العلمية غير المنتظرة ليتبينوا مبلغ الانتقال الذى حدث فى العقلية العلمية منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر . قال العلامة الفلكى الأشهر (كاميل فلامريون) فى كتابه (المجهول والمسائل النفسية) ، تهكما بالذين يقفون بالعلم فى حدوده المادية القديمة :

« الذين يقولون : معاذ الله أن نصدق هذه المستحيلات ، لا لا ، نحن لا نصدق إلا نواميس الطبيعة ، وهذه النواميس معروفة ؛ هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين السذج الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عندما يصلون فى رسمهم إلى جبل طارق هذه العبارة : (هنا تنتهى الدنيا) ، ولم يعرفوا أن فى تلك الشقة القريبة المجهولة يوجد من الأرض ضعف ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجسورون فى ذلك الحين » .

وقال فى صفحة (٧٥٠) من كتابه المذكور :

« فالمشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحانى محقق كتحقق العالم المادى المدرَك بحواسنا الخمس » .

وقال هذا العلامة نفسه فى صفحه ٨ من كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) :

« أنا لا أخفى عن نفسى بأن كتابى هذا سيثير ثائرة مناقشات واعتراضات أصولية ، ولا يستطيع أن يقنع غير الباحثين المستقلين ، ولكن ما أقل العقول المستقلة

الحرة على سطح كوكبنا هذا ؛ وما أقل الميل الصحيح للاطلاع مجردا عن كل مصلحة ذاتية ! وكأنى بجمهور قرائى يقولون : أى شىء فيما ذكرت يوجب الاهتمام : أخونة ترتفع عن الأرض ، ومناضد تتحرك ، وكراسى تنتقل عن مواضعها ، وبيانات تقفز وستائر تضطرب ، وطرقات تحدث ، كل ذلك بلا سبب معروف ، وأجوبة ترد على أسئلة عقلية لم يتلفظ بها إلخ إلخ ، كل هذا من الأمور التافهة أو الهذيان الذى لا يصح أن يلفت نظر عالم من العلماء ....

« لا جرم أن من الناس من قد تسقط السماء على رءوسهم فلا يحسون . أما أنا فأجيبهم قائلا : ماذا تقولون ؟ ألا يعدّ شيئا لا يؤبه له عندكم أن ندرس طبيعتنا الخاصة ، وخصائصنا الذاتية ؟ » .

وقال العلامة (بيرجانيه) المدرس بجامعة السوربون فى كتابه (الحركة النفسية الذاتية) صفحة (٣٧٦) وما بعدها :

« المذهب الذى أوجزنا الكلام عنه يستحق درسا مدققا ، ومناقشة أصولية ؛ وإن التشكك والازدراء اللذين يحملان على نكران كل ما لا يُفهم ، وعلى ترداد كلمتى غش وتدليس دائما وفى كل مكان ، ليس لهما محل هنا ، ولا حيال ظواهر المغناطيس الحيوانى ، فإن الحركة التى دفعت إلى تأسيس خمسين جريدة فى أوربا ، وحملت على اعتقاد صحتها عددا عظيما من الناس لا يصح أن تعتبر قليلة القيمة » .

وقال الأستاذ الدكتور شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا فى كلية الطب الباريزية والعضو بالمجمع العلمى الفرنسى ، فى المجموعة السنوية للمباحث البسيكولوجية لسنة ١٨٩٣ :

« لا يمكن أن يكون مثل هذا العدد العظيم من الرجال الممتازين فى انجلترة وأمريكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا قد وقعوا تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل ؛ والحقيقة أن كل ما وجه إليهم من الاعتراضات قد فكروا فيه ، وتناقشوا عليه ، ولم يزدهم أحد علما كلما عارضهم بمسألة المصادفات الممكنة والتدليس ، فإنهم فكروا فيها قبل أن يعارَضوا بها ، حتى إنى لا أستطيع أن أتوهم أن أعمالهم كانت عقيمة ، أو أنهم قد تأملوا وجربوا فى أوهام خداعة » انتهى .

إنى لم أرد من إيراد كل ما أوردته إلا أن أثبت أن العقلية العلمية قد افتكت من الربط الفولاذية التى كان قد أوثقها بها المذهب المادى ، وأنها قد أصبحت حرة تتناول كل بحث غير حاكمة عليه قبل النظر فيه بالاستحالة ، متابعة لأصول مقررة رسمت للبحوث العلمية حدودا لا تتعداها ، وقررت عدم وجود شيء وراء العالم المحسوس ، فهذا التحرر خطوة واسعة ستؤدى حتما إلى وجدان اكتشافات جديدة فى حقيقة القوى العاملة فى الوجود ، يستفيد منها الدين أدلة محسوسة على صحة العقائد التى يدعو إليها .

وإنى لم أعتدّ بالعلم الكونى هذا الاعتداد كله ، إلا لأنه هو المتصرف الوحيد فى عقلية الناس ونفسياتهم ، فما قاله فى شيء أنه محال أو وهم باطل ، فلا يوجد دليل فى الأرض يمكن أن يرفع عنه هذا الوصف ، وإن تظاهر حماة الأديان بخلاف ذلك .

وقد أردفت التبشير بهذا التطور الجلل الذى دخل فيه العلم ، بتأكيد رجال من عليتهم بوجود عالم روحانى ، وبعثورهم على أمور محسوسة تدل عليه دلالة قاطعة ، لأثبت صدق ما ذهبت إليه من أن هذا التطور سيكون فاتحة عهد انتقال بعيد المدى ، سيستعيد الدين من ورائه سلطانه على العقول .

وإذا كان هذا كله مسلما به فإن من المحافظة على الدين أن يدرَّس علم الطبيعة فى معاهده مراعى معه ذكر التطور الذى حدث فيه ، فلا تلقى أصوله باعتبار أنها حقائق مقررة لا تقبل التحوير ، ولكن باعتبار أنها تقريرات ظنية يؤخذ بها مع توقع تهذيبها أو استبدال غيرها بها متى كشف فى موضوعها أمر جديد . ويجب مع هذا أن تجعل لهذا العلم مقدمة تبين بها حقيقته والتطورات المتتالية التى دخل فيها ، ليرى المتعلم أنه أمام علم لم يبلغ بعد طوره الأخير .

ولا أرى بأسا من أن يتخير لطلبة الدين بعض ما أثبته علماء أوروبا بالتجارب العملية من وجود قوى فوق قوى الطبيعة تؤثر فيها فتبطل عملها ، أو تصرفها عن وجهها ، مما يعطيهم فكرة عامة على ما الإنسانية بسبيله من مكتشفات جديدة توسع من دائرة معرفتنا بحقائق الوجود .

أليس مما يؤسف له أن تبقى هذه المكتشفات وقفا على رجال العلم الكونى ، ويحرم منه الذين تحتم عليهم طبيعة ما يدرسونه أن يكون لديهم ذخر منه ليدحضوا به شبهات الملحدين ، وشكوك الشاكين فى صحة ما يقررون ؟

أو ليس مما لا يليق أن تبقى كتب العلم الطبيعى بين أيديهم فى ضلالها القديم ، مقررة أن المادة لا تنعدم ولا تتجدد ، على حين أن العلم الطبيعى نفسه قد توصل منذ أكثر من ثلاثين سنة إلى إفناء المادة بتحويلها إلى قوة ، وهو اكتشاف أصاب المذهب المادى فى الصميم ؟

فإذا أردنا أن نحافظ على الدين فى وسط عدد لا يحصى من الشبهات الإلحادية التى توجه إليه ، وجب علينا أن نمكن أهله من الأسلحة الماضية التى تحلل هذه الشبهات وترمى بها بواسطة المكتشفات الجديدة إلى مكان سحيق (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الأول ، (صفحة ١٢) ، سنة ١٣٦١ هـ .

الدفاع عن الدين فى هذا العصر

اضطر الإنسان فى كل عهد من عهوده إلى الدفاع عن دينه من الناحية الأدبية والعلمية ، حيال أدوار الانتقالات العقلية التى ما تفتأ تتجدد تحت تأثير الاكتشافات العلمية الجديدة ، والتجاريب الحيوية المتعاقبة .

ولما كانت أصول الدين وتعاليمه ثابتة لا تتغير ، فإن الضرورات تدفع العقل البشرى لإدمان البحث عن وجوه التوفيق بين المعلومات الحديثة التى تطرأ وتوسع من مجال النظر ، وبين الأصول الثابتة التى يدين لها باعتبار أنها متنزلة من الأفق الأعلى .

من هنا نشأ إلى جانب الدين فرع علمى خاص بالدفاع عنه ، سماه المسلمون علم الكلام ، وسماه الأوربيون ابولوجيتيك Apologètique ,وكان هذا العلم فى القرون الماضية قليل الكلفة على القائمين به ، إذ كان لا يستدعى منهم أكثر من التمهر فى صوغ الحجج العقلية ، والتمرس بالخصومات المنطقية ؛ ولكن لما جاء عهد العلم ، وأصحبت المسائل الكبرى يفصل فيها فى المجامع العلمية ، وجب أن يُدخَل علم الكلام فى طور جديد قل أن يستطيع القيام به فرد واحد ، لأن المسائل الكبرى التى يهم الإنسان معرفتها ، وهى أصل الوجود ، وحدوث الكائنات وتنوعها فى الصور ، وتولد الحياة وسوقها للنباتات والحيوانات إلى كالها ، ونشوء الروح الإنسانية ومظاهرها المختلفة من التعقل والتفكر والابتكار ، وظهور الأنواع ، وما ألهمته من مقومات حياتها ، وما سيقت إليه من محاولاتها ، كل هذه المسائل قد شغلت الفلاسفة والمفكرين قديما وحديثا ، وتكلم فيها رجال العلم على حسب ما وصلوا إليه من المكتشفات ، وغيروا وبدلوا فيما قالوه فيها فى مدى العصور ، حتى وصلوا إلى عهدنا الراهن وهى مسائل للدين فيها أقوال لا تنفق فى ظاهرها وأقوال هؤلاء الباحثين ، مما اضطر رجال الدين طوال عهد القرون الوسطى إلى فرض رقابة قاسية على رجال العلم ، ومعاقبتهم على مخالفتهم للكتب المقدسة عندهم ، وقد شددوا عليهم فى ذلك ليردعوهم حتى كانوا يحرقونهم بالنار .

فلما ظهر المذهب البروتستانتى فى نحو منتصف القرن السادس عشر ، وأخذت به أمم فى أوروبا الوسطى وغيرها ، رفع الخِناق عن أعناق رجال العلم ، لأنه كان من أصول هذا المذهب فى أول نشوئه إطلاق الحرية للباحثين ، وعدم العدوان على أحد بسبب مذهبه العلمى ، فقويت عزيمة رجال العلم على متابعة بحوثهم وعلى إعلانها غير حاسبين لرجال الدين حسابا ، حتى كادت هذه الحرية تصبح خطرا على الكنيسة ، فاضطرت للتضييق على العلماء ، ولكنها لم تصل بذلك التضييق إلى درجة القمع بالقوة ، فكان هذا مبدأ تاريخ حصول العلم على استقلاله .

تتابعت البحوث العلمية ، فى هذا الجو من الحرية ، وكان لها من النتائج فى تيسير وسائل العيش ، وتخفيف ويلات الحياة ، وزيادة الثروة العامة ، ما أقنع الناس طراً أن العلم ركن لابد منه فى بناء كل مجتمع متمدن ، وأن الوجود الدنيوى بدونه يصبح عباً ثقيلا على أهله . هذه المكانة السامية التى نالها العلم بحق ، مكنته من التصريح بآرائه فى الدين وعقائده ، غير مقيم لآثاره فى عقول الآخذين به وزنا ، وتمادى حتى أعلن على رءوس الأشهاد بأن الدين عقبة فى سبيل انتشار الفلسفة العالية الجديرة بكرامة العقلية الإنسانية ؛ ورجال العلم لأجل أن يقنعوا الناس بصحة هذا الحكم ، أخذوا ينقدون كل ما جاء فى الدين خاصا بالوجود والموجودات ، وتاريخ الأمم والجماعات ، نقدا لم يراعوا معه الاعتبارات الواجب الاعتداد بها فى محاولة الفصل فى هذه الشئون ، وهم بسبب افتتانهم بالمذهب المادى ، وإنكارهم لكل ما هو فوق العالم الطبيعى ، قذفوا بكل ما هو متعلق بالعالم العلوى إلى عالم الأضاليل .

بماذا قابل رجال الدين هذه الحملات الشعواء ؟ قابلوها بقذف الاناتيمات (أى اللعنات) تلو الاناتيمات ، معتمدين على كثرة سواد العامة ؛ ولكن العامية يُنتقص من أطرافها كل يوم بانتشار التعليم ، وتسهيل طلب المعرفة للراغبين ، وكلما ازداد رجال الدين انكماشا ، آنس الناس فيهم عجزا عن الدفاع عن حوزتهم ، وأثر ذلك فى العامة أبلغ تأثير .

الخطب جد خطير ، وعلاجه ليس بالأمر العسير ، إذا لم يمن بالتقصير والتأخير . وأول ما يجب أن يفكر فيه اختيار الأسلوب الذى يجب أن يُتوخى فى مكافحة الشبهات

الموجهة إلى الدين ، وإعداد الأسلحة من الصنف الذى يعتمد عليه الخصوم ، فإذا لم يكن لدينا ما ينقض شبهتهم من العلم نفسه سقطت حجتنا ، واستُخِف بالحقيقة التى ندافع عنها .

نعم إن العلماء الكونيين بما يقومون عليه من النظر فى الكون ، وبناء أحكامهم على حوادثه ، يقفون موقفا يصعب على من ينازعهم فى حكم أن يساويهم فيه ، ولكنه لو كان يشاركهم فى معارفهم لأدرك نواحى القوة ، ونواحى الضعف من استنتاجاتهم ، فإن عن له أن ينازعهم فى شىء فإنما يحتج فى تلك الحالة بأقوالهم ؛ وإنى ضارب لك مثلا بمسألة النواميس .

أصبح من المقررات العلمية أن الكون محكوم بنواميس ثابتة لا تتغير ، وأن كل الكائنات مدينة لها بوجودها ، وبما فيها من قوى ووسائل تمكنها من البقاء عمرها المحدود .

هذه قضية يخيل للذين لم يرودوا جميع مجالات العلم ، ولم يتوسعوا فى الإلمام بمنازعات أهله ، أنها من البدهيات التى لا يصح لعاقل أن ينازع فيها ، تفاديا من أن يتهم بالجهل وقصر النظر ، وقصارى ما كان يلجأ إليه المدافع عن العقيدة أن يدلل على أن وجود هذه النواميس لا ينافى وجود الإرادة الآلهية ، بل هى مظهرها فى العالم المادى ؛ وعدم تخلفها لا يدل على أنها واجبة الوجود ، لأن الخالق حكيم ولا ينقض دستورا وضعه للكون ، لتتأدى الكائنات بالجرى عليه إلى كمالها ، على نظام لا تضل فيه العقول .

هذا كلام تثلج عليه بعض الصدور ، ولا يقيم له بعضها الآخر وزنا . ولكن الذين يكونون قد جاسوا خلال المسائل العلمية الكبرى ، يعلمون أنه ما من مُسَلم من المسلمات العلمية إلا وقع بين العلماء فيه نزاع يحد من سلطانه على العقول ، ويسلب عنه حق الحلول محل غيره من الفروض .

قال العلامة الكبير أميل بوترو Emile Boutroux العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (تقلب النواميس الطبيعية) :

« من الخطأ أن يقال إن النواميس هى التى تدبر الظواهر الطبيعية ، لأنها لم تكن موجودة قبل الكائنات ، ولكن الكائنات هى التى اقتضتها ، وهى لا تبين إلا العلاقات التى تحدث من تأثير طبائع تلك الأشياء بعضها فى بعض ، هى سابقة فى الوجود على النواميس ...

« العالم يرينا فى كل مكان بجانب الدوام والاستقرار ، وهو مما يوجب القول باستقرار النواميس ، حالات أخرى من التغير والارتقاء والانحطاط ، وهى تقتضى القول بتقلبها ، وليس هذا فى النواميس الجزئية فحسب ، ولكن فى النواميس الكلية أيضا ...

« أكان هذا النظام العالى (يريد نظام العالم) مما يمكن أن يوجد ، إذا كان الثبات المطلق هو الناموس السائد فى الكون ، وكان الأصل الذى مؤداه أنه لا يتلاشى شىء ولا يتجدد شىء ، ساريا بدقة على الكائنات ؟ أكانت توجد فى العالم قيم متفاوتة ، أى صفات ومزايا بعضها أسمى من بعض ؟ أكان يوجد ترق وتكمل بين ثمرات قوة واحدة ثابتة لا تتغير ؟

« إن وجود الإنسان ، وهو كائن شاعر بذاته ، لا يمكن تفسيره بمحض فعل النواميس الطبيعية والفيزيولوجية ، فإن وجوده وأعماله تقتضى من الطبيعة إحداث ترقيات لا تستطيع إحداثها » .

وقال العلامة الكبير الأستاذ السير وليم كروكس الانجليزى فى خطبة له بالمجمع العلمى الانجليزى ، وما ننقله عنه هنا مقتبس من مجموعة خطبه صفحة (٣٦) :

« إن ما نسميه ناموسا طبيعيا هو فى حقيقته وجه من وجوه الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة ...

« فأى ضرب من ضروب الإرادة والفكر موجود خلف الحركات الذرية للمادة ليجبرها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟...

« وأى ازدواج من الإرادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات المادية ، خارجا عن النواميس الطبيعية ، بحيث يحملها على تكوين هذا العالم الذى نعيش فيه » ؟

وقال العلامة المذكور فى خطبة أخرى (صفحة ٨ من مجموعة خطبه) :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك إلى أى حد تنحصر هذه النتائج ، أو كما نسميها النواميس ، فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا عليها أقل علم » .

هذا كلام صريح من رجل يعتبر من أعلم الناس بالنواميس ، لأنه كيمائى ورياضى معا ، بأن الناموس فى حقيقته لا يعدو كونه وجها من اتجاه قوة تعمل فى التكوين ، لا أنه عامل مستقل ، وأن خلفه إرادة وفكراً هما العاملان الحقيقيان فى الواقع .

وقال الفيلسوف الكبير (ادوار لوروا) E. Le Roy ونقله عن العلامة الرياضى هنرى بوانكاريه H. Poincarè عضو المجمع العلمى الفرنسى ، مؤيدا له ، فى كتابه قيمة العلم La valeur de la science . .

« العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله ، وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا على ما هو عليه من الاستقرار . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست إلا من مخترعات العلماء أنفسهم (تأمل) . فالعلم لا يستطيع ، وهذه حالته ، أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة ، وكل ما يرجى منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل » .

هذا نموذج من آراء أقطاب العلم فى أصوله العامة ، وقد اخترت أصلا من أوليات أصوله مما يعتبر المتحذلقون التشكك فيه جهلا يوجب السخرية ، فما ظنك بغيره من الأصول ؟

ولكن لا يجوز أن يحملنا هذا على الاستخفاف بالعلم لنقيم على أنقاضه دولة الأوهام والظنون ؛ فإن العلم كما هو قاس على أصوله باعتبار أنها فى حاجة إلى التكميل ، قاس كذلك على مقررات لا مستند عليها إلا أنها من مرويات الأقدمين ؛ وهو إن كان ينقد بعض أصوله نقدا لا هوادة فيه ، فذلك لأنها لم توف بشرطه من ضرورة قيامها على التجربة ، وهو مرمى بعيد يجب أن يحسب حسابه المستخفون بالعلم من المتكلمين .

ونحن إن كنا نبغى من وراء أمثال هذه التحليلات العلمية نصرة الدين ، وجب علينا أن نسلك إلى مرادنا على أسلوب العلم نفسه ، وبالاستناد إلى يقينياته المقررة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بعد أن نجرد الدين من كل ما ليس منه من الآراء البشرية ، وهذا ما سنتوخاه فى مقالاتنا المقبلة إن شاء الله (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء السادس ، (صفحة ٢٤٦) ، سنة ١٣٦١ هـ .

أكبر أسباب الخلاف
بين أصحاب الأديان
بماذا تذرع الإسلام لحسم مادة هذا الخلاف ؟

أكبر أسباب الخلاف بين الأمم تعصبها لأنبيائها ، وذهابها فى تقديسهم وتنزيههم مذهبا لا يتفق مع العقل ، ولا يستقيم على دليل .

كانت الأمم فى العهود السابقة لا تدين للمقررات العلمية ، ولا تخضع للأحكام العقلية ، هائمة بين الحس والخيال ، فى واد لا يحده حد طبيعى ، ولا يسوده نظام من أى نوع كان .

كان الحس يزعج الأمم بأنواع من الفواعل الوجودية : من حر وبرد ، وجوع وظمأ ، ومرض وموت . فكانت تنفعل طبيعتها لهذه الفواعل أيما انفعال ، فتتطلب المَخْلص بالجد والكدح ، فإن أخفقت فى ارتياد المخلص من عالم يعلو متناول حسها ، نظرت إلى السماء مناجية الروح الأعلى قيوم السموات والأرض ، وهى نزعة ليس أكمل ولا أحق منها لو وقفت عند هذا الحد . ولكن الخيال يطمس جلالها وجمالها بما يحمل إليها من صنوف الأوهام والتصويرات الباطلة ، ويحمل الأمم على تجسيد هذا الشعور العالى ، فتدين الأمم لأنصاب وأصنام تتخيل فيها الوساطة أو الحلول ، أو غير ذلك من الأحلام . فإن رق شعورها وترفعت عن التجسيد الصورى ، جسدت الخالق ذهنيا ففرضته ملكا سماويا جالسا على كرسى الجلال وبين يديه الملائكة يأتمرون بأمره على طراز الملوك الأرضيين .

فكل رسول أرسل إلى تلك الأمم ، وسلم من بطشها ، رفعته إلى أرفع من مستوى البشرية ، وأكثرها دعاه ابنا لله ، وكان أكبر أسباب هذا الغلو ، اعتماد أولئك الرسل فى تأييد دعواهم على المعجزات . فكان عيسى عليه السلام يحيى الموتى وما دون ذلك من شفاء الأكمه والأبرص والأعمى ، وموسى أوتى العصا وغيرها ، وأوتى

من قبلها أنواعا أخرى من المعجزات . وكان لا سبيل إلى إخضاع الأمم للقانون والشريعة إلا بهذه الوسيلة ، فإن سلطان العقل لم يكن له عليهم من سبيل .

فكانت هذه الخوارق من أكبر أسباب رفع الأنبياء إلى درجة البنوة لله تعالى ، والغلو فى تعظيمهم ولا سيما بعد موتهم إلى حد نسوا معه الخالق ذاته ، فجعلت العبادة لهم دون سواهم .

فلما جاء دور الإسلام كانت الأمم قد دخلت من حياتها الأدبية فى دور التعقل والتفهم ، وعرفت لأحكام العقل ونواميس الكون قيمتها ، فلم تعد للمعجزات من أثر على خيالها ، حتى أن العرب لما أرادوا أن يبطلوا دعوة النبى ﷺ ، اقترحوا عليه أن يأتيهم بالمعجزات ، ويؤخذ من سياق طلباتهم ، أنهم كانوا لا يأبهون بها ، بل يشكون فيها وينسبون حدوثها للشعوذة . فقالوا كما حكى الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ (أى من ذهب) أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَاءِ ، وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (١) .

يرى القارئ من سياق هذه التحديات مبلغ استخفافهم بالآيات . وقد نص الله تعالى على أنهم كانوا من الشك بحيث إنهم لو كانوا رفعوا إلى السماء لقالوا إن ذلك من تخييلات السحر لا من الله عز وجل ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢) سكرت أبصارنا : أى سدت عن الإبصار بالسحر .

إلى هذا الحد كان قد وصل الشك على عهد النبى ﷺ فى صحة المعجزات ، وهو كما يدل على التغلغل فى الإنكار والجحود ، يدل على مبلغ خلاص العقل من الأوهام والخزعبلات . فإن الجاهلىّ الذى يتشدد فى تصديق المحسوسات الخارقة للعادة ،

---

(١) سورة الاسراء : ٩٠-٩٣ .

(٢) سورة الحجر : ١٤-١٥ .

وينتحل لها أسبابا خفية ، أحر به أن لا يقبل ما دونها من التخييلات السحرية ، والزخارف الشعوذية .

فاقتضت حكمة الخالق الحكيم أن يرسل إلى الناس فى هذا الدور الأخير رسولا يأخذ الناس بأحكام العقل ، ويردهم إلى مقررات العلم والحس ، فكان نجاح النبى ﷺ فى مهمته ذلك النجاح الذى لم يصادفه رسول قبله أدل دليل على مبلغ ما يفعله البرهان الصحيح والعلم المؤسس على الحق الصريح فى نفوس الأمم .

من هنا انتقل الناس من دور التسليم بمجرد رؤية الخوارق ، إلى مستوى النظر فى الحوادث ، والاستدلال بالأعلام الوجودية ، وهى خطوة واسعة فى سبيل رقى البشرية ، تعتبر الغاية القصوى فى حياتها الدينية .

فكان سلاح نبى الإسلام فى بث دعوته العقل ووسيلته النظر فى الكون ، والاستدلال بأعلامه وبيناته ، وهذا مظهر لم يكن عهده الناس من مظاهر النبوة . فبعد أن كان الإنسان يقول للقائم بدعوة : ما هى معجزتك ؟ صار يقول له : ما دليلك العقلى ؟ فإن أدلى بالدليل كفاه ذلك عن كل خارق للعادة [1] .

سقطت فى هذا الدور دولة الخوارق ، وقامت دولة الأحكام العقلية والقياسات النظرية ، فقام المتدينون بالإسلام على غير السمت الذى كان يقوم عليه من قبلهم من الأمم المتدينة . قاموا على سمت العلم والنظر فى الكون والاستدلال بالحوادث ، فلا غرو أن أصبح المسلمون بعد عدد محصور من السنين أرقى الأمم علما وعملا ، وأبعدهم بالوجود وحوادثه خبرا .

فكانوا يدرسون الطبيعيات والرياضيات ، وينقبون فى الأرض عن خفايا المعادن ذات القيمة العظيمة فى الصنائع والفنون باسم الدين والقرآن وخلافة الله فى أرضه ، بينما كان من تقدمهم يقتل بعضهم بعضا تأليها للرجال ، واختلافا فى الأباطيل التى أحاطوا بها عقائدهم ، فلا عجب إن دوخ المسلمون من تلك الأمم فى أقل من قرن

---

(١) ليس مؤدى هذا الكلام أن النبى ﷺ لم تصدر منه معجزات كسائر إخوانه الأنبياء ، ولكن مؤداه أنه لم يجعل المعجزات أساسا للدعوة . أما معجزاته ﷺ فكثيرة شهدها عدد من الناس لا يدع للشك فيها مجالا .

ما لم تستطع أكبر الأمم شأنا أن تدوخه فى قرون عديدة . ولا غرابة إن بلغ المسلمون من المدنية الفاضلة ما لم تبلغه سواهم من الأمم البائدة .

إن من المدهشات بل من المعجزات التى تشهد لهذا الدين بأنه وحى إلهى صادق ، أنه حشر إلى حظيرته فى قرن من الزمان نحو مائة مليون من الأتباع بمحض وجوده لا بسيف ولا إغراء .

لأن المسلمين كانوا إذا أرادوا إخضاع أمة جريا على ناموس التغالب ، خيروها بين ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وكانت الجزية التى يضربونها على الأمم لا تبلغ بعض ما كان يجبيه ولاتهم منهم بضرب وجوههم ، فكان يسهل على كل أمة تغلب لهم أن تدفع الجزية ، فما الذى اضطر هذه الملايين إلى الدخول فى الإسلام غير سماحة هذا الدين وانطباقه على أحكام العقل ، وظهور أهله بمظهر الكمال والفضل ؟

أما الدعوة فقد كان المسلمون أهملوها طمعا من أكثر الولاة فى زيادة أموال الدولة بما يجىء من الجزية ، فإن الرجل كان بمجرد دخوله فى الإسلام يعفى من الجزية ، فيكون فى ذلك عجز لإيراد الحكومة .

لهذا السبب كان بعض الولاة يكرهون أن تدخل الأمم المفتتحة فى الإسلام تفاديا من نقص الإيرادات .

ولكن الشعوب كانت ترى الفرق واضحا بين تعاليم دينها وتعاليم الإسلام ، فكانت تترامى إلى أحضانه طائعة مختارة ، حتى بلغ عدد من دخل منهم فى أقل من قرن فى الإسلام نحو مائة مليون كما قلنا ، وهذا عدد لم يسمع بمثله فى تاريخ دين من الأديان .

ولا يزال الإسلام سائرا فى طريقه من الانتشار العظيم ، ولو كان المسلمون اليوم على ما كان عليه آباؤهم من الفضائل التى يندبهم إليها دينهم لانتشر دينهم بلا دعوة انتشارا لا يدع لغير الإسلام من الأديان مجالا لمنازعته .

وقد بذل الإسلام مجهودا عظيما ليزعزع فى الأمم عقيدة تأليه النبيين حتى لا تقف هذه العقيدة حجر عثرة أمام ترقيهم ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وزاد على هذا بيانا فذكر شيئا من تفصيل حالات أولئك المرسلين حتى يزيل كل احتمال لارتفاعهم عن مستوى الإنسانية ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (٢) .

كأنه قال إنَّ من يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق لا يصح أن يكونوا آلهة أو أجزاء من آلهة ، فهم أفراد من خيار هذا النوع لا فرق بينهم وبين سائر أفراده إلا أنهم اختيروا لأن يكونوا رسلا لله إلى عباده .

كان لهذه الآيات تأثير كبير فى كسر غلواء المتدينين ، وصد تيار التأليه عن النبيين ، ولم يزل هذا التأثير يرقى وينتشر حتى صرنا فى قرن لا يجسر واحد فيه أن يعلن هذه العقيدة إلا فى بلاد لم تأخذ حظها من العلم والنظر .

وأخذ نوابغ القرون الأخيرة يبثون فى الناس مبدأ تنزه الخالق عن الولد والشريك ، وأن المرسلين ليسوا إلّا رجالا اقتبسوا النور عن الخالق وعكسوه على الناس ، فقال حكيم الشعراء (فيكتور هوجو) كما نقلته المجلة الروحية عنه :

« إن الشعور الفطرى المودع فى صميم الإنسان بوجود الله تعالى أتى إليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله عز وجل) ، أما الديانة اليهودية والصابئية والبوذية والمعددة والمانوية والمحمدية والمسيحية فهى من نور القمر ، لأن موسى وبوذا وزرادشت وأورفيه وكونفسيوس ومانى ومحمد وعيسى هم أنواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرفون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين ، فالديانات التى هى أقمار الشمس الإلهية مهمتها إفاضة النور على الإنسان فى غياهب حياته وظلمات بقائه » انتهى كلامه .

---

(١) سورة النحل : ٤٣ .

(٢) سورة الفرقان : ٢٠ .

هذا كلام فيه جهات من الضعف إلى جانب جهات من القوة بارزة فيه ، والكنه مما يستشهد به على أية حال للدلالة على تحول العقلية البشرية عن تأليه الأنبياء ، وعلى اتجاه نظرها إلى الديانة الإسلامية بعد أن كان التعصب يحول بينها وبينه .

فالحوائل التى كانت تفرق بين الأمم ، وأشدها الغلو فى تقديس أنبيائهم ورفعهم إلى درجات الألوهية ، كادت تكون فى عداد الآثار التاريخية . فإذا وصل الإنسان إلى الخلاص منها توحدت الأديان على أسلوب القرآن ، وكان الفوز لأصوله على مر الأزمان (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء السابع ، (صفحة ٤٧٠) ، سنة ١٣٥٧ هـ .

الشبهات العلمية على الأديان

تحليلها ودحضها على أسلوب العلم نفسه

يهم المدافعين عن الإسلام فى هذا العصر أن يعرفوا جميع الشبهات العلمية التى يدلى بها فلاسفة العهد الحاضر على الأديان ، للتدليل على أنها لا تتجه إلى الإسلام . لذلك أرجو أن يعذرنا القراء إن بسطنا لهم هذه الشبهات بسطا بكل ما تحمله من نتائج قريبة وبعيدة ، مع التعقيب عليها بما يثبت أن الإسلام بمنجاة منها .

للفيلسوف الكبير (جيو) Guyo الفرنسى كتاب أسماه (اللادينية المستقبلة) أودعها أمهات الشبهات على الأديان ، وقد طبع مرات كثيرة فنقتطف منه تلك الشبهات فهو أوسع مصدر لها ، قال :

« مما قرره النقد العصرى للأديان أمر جدير بالنظر ، وهو أنه قد دلت مباحث المسيو روسكوف والمسيو ريفيل والمسيو جيرادوريال بأنه يستحيل القول بوجود أمم فى عصرنا هذا على سطح الأرض مجردة عن ديانة أو عقائد خرافية حتى فى الأمم المتوحشة ، وقد صار الإنسان كائنا متدينا بسبب أنه أعقل من غيره من الحيوانات .

« وغير هذا فإن الآثار الباقية من عهد الإنسان قبل التاريخ ، تدل بواسطة ما وجد من الطلاسم والمقابر وقطع من الجماجم مثقوبة بقصد التعليق ، على وجود الدين إذ ذاك .

« وإذا فتدين الإنسان يمكن اعتبار وجوده بطريقة لا تقبل الجدل من عصر الحجر المصقول .

« وإذا انتقلنا من الأمور المحسوسة إلى الظنون ، فيمكننا أن نقول بأن الإنسان قبل مائتين وخمسين ألف سنة كانت له عقائد مبهمة سطحية ، ولو لم يكن إلى ذلك العهد قد شعر بوجوب احترام للموتى يحمله لأن يحفر لهم قبورا ، ولا اتخذ لنفسه صنما يتقرب إليه بالعبادة .

« هنا نقطة ثابتة يمكن قبولها ، ولها نتائج هامة فيما نحن بصدده : ذلك أن الديانة لما لم يكن أصلها من عالم علوى (هذا رأيه) فقد ترقت تدريجيا على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، وتولدت من أفكار ساذجة مبهمة تناسب تلك العقول الساذجة الأولية ، ثم تدرجت مترقية حتى وصلت إلى مستوى المدركات الكثيرة التركيب ، العظيمة القيمة التاريخية ، كما هى عليه الآن . من هنا ليس للأديان أن تتوهم أنها لم تترق من أصل بسيط ساذج ، بل هى ترقت على غير علم منها مقودة بحركة الترقى العام إلى الحالة التى هى عليها الآن .

« بقى علينا أن نحدد تلك الأفكار الأولية التى كانت أساسا للأديان . هنا يبتدئ الخلاف بين رؤساء العلم الدينى (يريد بهم العلماء الباحثين فى الأديان لا العلماء الدينيين) ، فبعضهم يعللون الأديان بواسطة وجدان عال نبع من صميم القلب ممثلا الحقيقة العلوية بايحاء إلهى ، وبعضهم يعللها بقوله إنه خطأ من الإنسان فى التجربة ، وخطأ من عقله فى الاستدلال . فالأولون يرون أن الدين اندفاع من العقل الإنسانى ليسمو عن حضيض الطبيعة التى نحن متورطون فيها إلى مكانات الرفعة الملكوتية . والآخرون يرون أنه نشأ من تعليلات الإنسان للحوادث الطبيعية العادية تعليلا باطلا ، سواء فى ذلك الحوادث التى تقع تحت حسنا أو تجيش فى ضمائرنا . فهو فى نظر أحد الحزبين أرقى من العلم ؛ وفى نظر الحزب الآخر هو العلم فى طفولته .

« جميع الفلاسفة العقليين مثل أتباع ستروس ورينان وماتيو أرنولد يجدون فى الأديان جرثومة مذهبهم الراقى ، ويحنون رءوسهم إجلالا لها على حال توهم أنها استهزائية لولا أن لسان حالهم يشعر بأنهم مخلصون فيما يفعلون . فهم يرون فى الأديان أشرف وأبقى ما أنتجته العقول البشرية . أما الفلسفات الحسية فلا ترى فى أصول الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية خشنة .

« من هنا يرى القارئ أن مسألة البحث عن أصل الأديان على مقتضى الأسلوب الجديد الذى تتطلبه روح العصر الراهن هى من المسائل العويصة الحل . وقد كان الناس يتساءلون من زمان بعيد : هل الدين وحى إلهى أم وضع طبيعى ؟

فانتهت بالناس الحال اليوم لأن يتساءلوا : هل الدين مطابق للطبيعة الحقة ، أم هو نتيجة ضلال من العقل أو ضلال من النظر ، كان حدوثه أمرا مقضيا ثم هذبه العلم وأوضحه على تمادى الأزمان ؟ ويتساءلون أيضا : هل الإله المذكور فى كتب الأديان هو نفسه ذلك المعبود الوهمى الذى كان يعبده الوثنيون فكبره المتدينون ونزهوه على نسبة ارتقاء عقولهم ؟ » انتهى كلام الفيلسوف جيو .

ونحن نتصددى لتحليل هذا الكلام والرد عليه ، لأنه فى نظرنا يشتمل على قضايا تحكمية لا تدعو الضرورة إليها ، بل يوجد فى العلم نفسه ما يناقضها .

فقول الفيلسوف جيو : الأديان ليست من أصل علوى بدليل أنها نشأت ساذجة مبهمة ، ثم ترقت وتركبت على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، فلا يصح أن يكون دليلا على أن الدين أصله أرضى . فإن العقل الإنسانى نفسه نشأ ساذجا مبهما ، ثم ترقى وتركب على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، والعقل ليس بأرضى الأصل لأنها مجردة منه ، والمجرد من الشىء لا يعطيه ، فأصل العقل علوى كما هو بدهى ، وكونه نشأ ساذجا مبهما لا يقدح فى ذلك . فالحكم على الدين بأنه أرضى لا علوى لأنه نشأ ساذجا مبهما ثم ترقى – تحكم لا يسوغه عقل ، ولا تقبله فلسفة إلا الفلسفة المادية ، وقد تحطمت أصولها أمام الفتوحات الرومانية التى توالت فى التسعين السنة الأخيرة .

وكيف لا يعتبر الدين علويا وهو ينزع إلى التقرب من موجد الخليقة بالإنخبات إليه ، والتقرب منه بحرمان النفس من مشتهياتها ، وبتقييد رغباتها ونزعاتها ؟

أليس للأصل حق فى توجيه النزعة التى يولدها فى النفس ، فلو كان ذلك الأصل أرضيا فهل يدفع بالنفس إلى ما فوق الأرض ؟ ولماذا ؟ فإذا لم يوجد سبب وجيه لإحداث هذا التوجيه المعاكس فلا يمكن أن يعقل ، فلننظر ماذا يقوله الفلاسفة الماديون بعد ذلك لعلنا نصادف ذلك السبب فى أقوالهم فنحاكمه إلى العلم .

يقول جيو : إن بعض البحاثين فى أصل الدين يرون أنه نشأ من تعليلات الإنسان للحوادث الطبيعية تعليلا باطلا ، وعلى ذلك فيكون الدين هو العلم فى طفولته .

ومعنى هذا أن الإنسان رأى أن الأنهار قد تطغى فتغرق أهله وحرثه ، أو تصيب ماشيته وأمتعته ، ورأى الصواعق تنقض فتحرق كوخه وتجتاح بعض ذويه ، ورأى الرياح تركب رأسها فتهدم بيته ، وتقتلع أشجاره ، أو تسقط ثمراتها ، ورأى السيول تصيبه فلا تبقى فى طريقها من أشيائه ولا تذر إلخ ، فنظر فى علل هذه الحوادث كلها فلم يجد لها تعليلا غير هذا : وهى أنها من عمل روح أو أرواح شريرة تغضب عليه لإهماله شأنها ، فتنتقم منه بإثارة هذه الجوائح عليه ، فحمله ذلك على وجوب الاعتراف بسلطانها وبعبادتها ، وتقريب القرابين لها ، وإهداء أثمن ثمراته إليها ، وتمادى فى ذلك وهذبه ونقحه على نسبة ترقى عقله حتى وصل إلى توحيدها ، وإلى تنظيم العبادات لها وتجريدها ، واعتبر ذلك وحيا إلهيا ، ناسيا أصلها الساذج ، والأطوار التى دخلت فيها تدريجيا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

نقول : وهذا أيضا لا يسمح به العلم ، ولا يسمح به النظر الصحيح ، لأن شيوع الدين فى كل مكان ، وقِدمه فى النوع البشرى ، بحيث لم يصادف الباحثون فى أقدم عهود البشرية أمة أو قبيلة بغير دين – يشعر بأنه غريزى فى النفس البشرية ، فإن كل ما عُلم عنه يدل على أنه كذلك ، فمن شأن الغريزة الطبيعية أن تعم جميع أفراد النوع ، وأن تكون فيه اضطرارية لا اختيارية ، وأن تكون ذات طبيعة واحدة ، وذات وجهة واحدة . وهذا كله ينطبق على الدين فى النوع البشرى .

فإذا لم يكن الدين غريزيا لوجدت أمم وقبائل غير متدينة ، كما هو شأن كل أمر غير غريزى . ومن الغريب أن الأمم عاشت منعزلة بعضها عن بعض آمادا طويلة لا تحلم واحدة منها بوجود الأخرى ، فلما تم اتصالها بعد استكشافها وجدت أنها متدينة على الأسلوب نفسه الذى عليه كل أمة فى الأرض ، أفلا يدل هذا دلالة محسوسة على أن التدين غريزة قاهرة فى النفس البشرية ، وليست صفة مكتسبة من قبل ؟

يقول الفلاسفة الماديون : إن الدين نشأ من خطأ فى التعليل ، وهل الإنسان فى سذاجته كان يفزع إلى تعليل الحوادث التى تصيبه ، كما يفزع إليها الذى وصل عقله إلى درجة ما من درجات الارتقاء ؟ هب أنه كان يلجأ إلى التعليل ، فهل يصل أفراد النوع كلهم إلى علة واحدة ، وعلى نوع معين منها ، بحيث لا يوجد خلاف بين جميع أفراده إلا فى التسمية فقط ؟

هذا بعيد عن التصور ، ولا يمكن قبوله لا علميا ولا فلسفيا ، وإنى أعجب للذين يقبلونه وهم يرون وهيه إلى هذا الحد ! لكنهم مضطرون لقبوله على علانه ، لأنهم إذا لم يفعلوا اضطروا للقول بوجود غريزة دينية فى النفس البشرية . وهذا يضطرهم للبحث عن مصدرها ، فإذا اتجهوا هذه الوجهة استد عليهم باب الوراثة الحيوانية ، لأن الحيوانات مجردة من التدين ، بل قال كبير الفيزيولوجيين الأستاذ كاترفاج الفرنسى : إن الفارق المميز بين الإنسان والحيوان هو التدين ، أما سائر الصفات النفسية من حب وبغض وأمن وخوف إلخ ، فهى شائعة بين الإنسان والحيوان على أقدار متفاوتة .

وإذا لم تكن تلك الغريزة وراثية فكيف نشأت فى النوع البشرى طفرة ، وأمثال هذه الطفرة محال عندهم ، لأنهم لوقالوا بإمكانها اضطروا لنسبة التدين إلى عامل فوق الطبيعة يكفى لترسيخه فى نفس الإنسان وتعميمه بين جميع أفراده ؟

ولما كان من المتعذر قبول رأى الماديين فى أن التدين أصله تعليلات باطلة للحوادث الطبيعية بعد ما حللناه التحليل الذى رأيت ، فلم يبق إلا القول بأنه غريزة فى النفس البشرية غرزها فيها بارئها . وهذا ما يصعب عليهم أن يقبلوه هم ، لأنهم لا يعقلون وجود بارئ للكون ، وما ذنبنا نحن معشر الذين نعتقد بوجود بارئ للكون أن نُكَلف تعليلهم للتدين بتصديق ما لا يعقل ؟

من شبه هؤلاء الماديين أن الدين نشأ ساذجا ثم ترقى بترقى العقول والعلوم ، وهذا القول منهم غريب لأن الدين ينحصر فى كلمتين : الخضوع لموجد الكون ، والتقرب إليه بالصالحات . والقرآن الذى هو آخر الكتب السماوية نزولا يصرح بهذه الحقيقة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة النساء : ١٢٥ .

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

أى أن الدين الحق هو ما فطر الله النفس الإنسانية عليه من الاعتقاد بقدرة لا حد لها صورت هذا العالم وأبدعته ، ومن العمل بما هى مفطورة عليه من القوانين الباعثة على التكمل .

من هنا يرى أن الدين يعلن القرآن أنه أصل الأديان كلها هو من البساطة بحيث يعبر عنه بكلمتين : (الإيمان والإحسان) ، وكل ما ورد بعد ذلك فى القرآن فهو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وتفصيل للأحكام وتعليم للإنسان وجوه العبادة الموصلة إلى الكمال النفسانى .

فإذا كان الدين من البساطة عند هذا الحد ، كما يصرح به آخر الأديان نزولا ، فمن أين نشأت شبهة الفلاسفة الماديين ؟ إنها نشأت بلا شك من ذهاب قادة الأديان المختلفة مذهب التوسع فى فهم هذين الأصلين ، فتكونت شروح وتأويلات نقلها الخلف عن السلف ، وزادوا عليها وقدموها للشعوب باعتبار أنها من الدين ، فأصبحت الأديان بذلك مجتمع أفكار بشرية ، صبغت بصبغة إلهية ، ثم تحجرت بمرور الزمن عليها ، فضاعت فى أطوائها بساطة الدين الفطرية ، وجاءت الفلسفة العصرية تناقشها الحساب وتنازعها السلطان على الأرواح .

ولكن الإسلام لبقاء كتابه بمنجاة من التحريف ، بقيت آياته الموحاة ظاهرة للعيان ، ومتميزة عن الشروح التى علقت عليها ، فإذا وقع نقد من العلم على شىء من أشياء المسلمين ، فلا يقع على الأصول الموحاة ، لأنها أصول علمية عامة اتفق البشر على صحتها وإطلاقها ، ولكنه يقع على الشروح البشرية التى علقت عليها ، وهو مما يمكن الرجوع عنه إلى الصواب . ومما أثر عن شراح المسلمين أنهم كانوا لا يأتون بفهم لهم إلا عقبوه بقولهم : (والله أعلم) ، ولم يحرموا على أحد نقده وتجريحه . ولو لم يصب المسلمين فتور فى بضعة القرون الأخيرة ، ولم يجمدوا على ما وجدوه لا يفكرون فيه ولا ينقحونه ، لكان كل ما شرحت به آيات القرآن موافقة اليوم لأقصى ما وصلت إليه العلوم الكونية من الثمرات العلمية .

على أنه مهما تكن الحال فإن جوهر الإسلام لا يلزمه ما عسى أن يكون قد أخطأ بعضهم فى فهمه ، أو قصر فيه عن مداه تأثرا بأحوال عصره ، فشبهة العلم التى أوردها الفيلسوف (جيو) لا تتناول الإسلام فيما تناولته من سائر الأديان .

يقول (جيو) : إن الفلسفات الحسية لا ترى فى الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية خشنة . فهب أن أقدم ما يعرف عن الأديان هى الوثنية الخشنة ، فهل هذا ينفى أن العاطفة التى دعت إليها أرقى وأشرف عاطفة بشرية ؟ ألم يبدأ كل علم عال وسواسيا خشنا فما زال يترقى ويتهذب حتى وصل إلى درجة عالية من النضج والصقل ؟ فهل الميول التى دعت إلى هذه العلوم يقدح فى سموها أن لا يصل الإنسان إلى مراميها طفرة ، وهو محتوش بكثير من القواطع المادية ، والعواثير الطبيعية ؟ أليس يدل على سموها وعراقتها فى الكرامة أنها دفعت الإنسان رغما عن هذه القواطع والعواثير إلى غايات بعيدة من فهم بعض الوجود ، وفهم شىء من قواه ونواميسه العاملة فيه ؟ فكذلك الدين لا يقدح فى شرفه وكرامته أن لا يكون الإنسان قد فهمه على أحسن وجه وهو فى أخس أدوار جهالته ، وأحلك عهود عمايته . ومن يوفقه الله للاطلاع على فتوحات العلم فى الشئون النفسية فى القرن الأخير تتبين له حقائق يخجل من أنه كان يسعى فى إبطالها بدون دليل [1] .

* * *

(١) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء الثامن ، شعبان ١٣٥٧ هـ (صفحة ٥٠٥) .

الإيمان بما فوق الطبيعة

أساس لبقاء النوع الإنسانى وترقيه

اشتدت الفلسفة المادية فى القرن الماضى فى نشر أصولها ، معتمدة على ما كشفته العلوم الطبيعية من مساتير القوى الكونية ، ذهابا من قادتها إلى أن تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضى إلى نضج القوى العقلية الإنسانية ، ويكون أثر ذلك على الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيا لا تشوبه شائبة ، وكمالا علميا وعمليا يؤدى الإنسانية إلى عهدها الذهبى المنتظر ، دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .

وقد بذل أشياع هذه الفلسفة جهد الجبابرة فى نشر مبادئهم ، فأكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم ، وعمدوا إلى طبع المؤلفات التى تؤيد مزاعمهم طبعات رخيصة الثمن لتنتشر بين الطبقات الدنيا من الشعوب ، حتى تم لهم ما أرادوا من زعزعة عقائد العامة فى شئون ما فوق الطبيعة ، وأصبح الاستخفاف بالمقررات الدينية ، واعتبار قادتها وممثليها من العاملين على صد النفوس عن الاشتراك فى بناء العالم الجديد الخالص من شوائب الرجعية ؛ فكانت ثمرات هذه الجهود التى بُذلت ، انتشار روح التمرد فى الطبقات العاملة ، واستهتار أصحاب الأموال فى جمع الثروات ، وإنفاقها فى اللهو والقصف ، والتفنن فى ضروب اللذات ؛ ونشأت من هذا الوضع مذاهب متطرفة بين العمال وما فى حكمهم ، تذرعت بكل صنوف الوسائل المدمرة للوصول إلى نظم اجتماعية لو تحققت لكانت وبالا وبيلا على المجتمعات المتمدنة ؛ بل تألفت أصول اجتماعية اعتبرت مُثلا عُليا ، على حين أنها حالات استثنائية تولدها الضرورة ثم تزول بزوالها .

كل هذا لا يُظهر بوضوح تأثير المذهب المادى فى إنتاجه ، ولكن هذا التأثير يظهر فى تدهور الآداب العامة ، وفى ارتخاء الرُّبُط الاجتماعية إلى حد أن اعتبرت تلك الربُط فى بعض الجماعات من بقايا العصور الهمجية التى يجب العمل على حلها .

أما تدهور الآداب فى القرنين الأخيرين فلست فى حاجة إلى بيان أطواره ؛ فقد أصبح كل ما كان يعتقده الناس إفراطا أو تفريطا ، أو تجاوزا لحدود الأخلاق العالية ، يعتبر من بقايا الوساوس العتيقة . ففى البيت أصبح الأولاد يشبون على عصيان آبائهم وأمهاتهم ، مستلهمين هذه الحالة عنهم ، فقد نشأ التدافع أول الأمر بينهم ، فالأولون ببقية من الغيرة أرادوا أن يحدوا من حرية زوجاتهم تحقيقا لمبدأ القوامة الفطرية عليهن ، فنشأت مشادات بين الفريقين ، انتهت بخذلان الرجال ، وكان خذلانهم بعاملين ؛ أحدهما تسمُّمهم بالمادئ المادية ، وثانيهما بسيادة الروح الإباحية فى الخارج ، فأقروا بخطة خسف ، وانتهى أمرهم بالتسليم بدون قيد ولا شرط ؛ فكيف فى بيئة مثل هذه أن تُحمل النابتة على اتباع طريقة أدبية ، وما فائدتها فى بيئة هى مثال الانحلال والتدهور ؟

على هذا النحو عمت الفوضى البيوتات ، وتعدتها إلى دور الدراسات ، حتى أصبحت مهمة التعليم عبئا ثقيلا على القائمين بها .

أما من ناحية الربط الاجتماعية فقد أصابها من الارتخاء ما وصل إلى أشد درجات الخطورة . ومظاهر هذه الخطورة قيام الاعتصابات لأوهى الأسباب ؛ فبينا يكون دولاب الأعمال على أكمل ما يكون من النظام إذا ببادرة اعتصاب فى بعض فئام العمال ، لا يلبث أن يعم جميع الذين يعملون مثل عملهم فى جميع أرجاء المملكة ، فيصبح الناس إما لا يجدون خبزاً يأكلونه ، أو نورا يستضيئون به ، أو وسائل نقل تقرب بين مساوفهم ، وتحمل تجاراتهم ، أو وقودا يدير آلاتهم ، ويدفع عادية الزمهرير عنهم . وكلما استرضيت طائفة خلفتها أخرى ، بغير مبالاة ، بما يستتبع هذه الإضرابات من وقف الأعمال ، وإرباك الأحوال ، وسقوط الوزارات ؛ وأكثر ذلك لا عن ضرورة ماسة ، ولكن تطلعا لولاية الحكم ، وتربصا للفرص لنيل بعض المآرب المادية ، وقد أصبح هذا الداء مستشريا إلى حد أنها لا تكاد تفرغ الجرائد من حوادث اعتصاب ، حتى تشتغل بغيره ، وهلم جرا .

وأشد خطرا على الإنسانية من هذا كله موت عاطفة التراحم بن الجماعات المختلفة ، والذهاب فى الخصومات إلى أبعد حدود القسوة والغشمرية ؛ فالأمم المتجاورة المتوحدة فى ديانتها وثقافتها ومدنيتها ، قد تتخالف فى سياساتها ومطامعها ،

فبدلا من أن تعملا على تقريب وجهتى نظرهما ، وتجهدا فى وجدان تسوية عادلة بين مصالحهما ، تعمل كل منهما على حرمان جارتها من حاجتها ، والاستئثار بكل الفوائد دونها ، فلا تجد الموتورة منهما إلا اللجوء إلى القوة فى الحصول على رغيتها ، فتقع بينهما حرب ، والحرب وسيلة وحشية ، فهى تناحرٌ لا يصح وقوعه بين الأمم التى تعقل اليوم نتائجها من الخراب والدمار . وقد تجر هذه الحرب الدول التى تمت إلى كل من المتخاصمين بسبب ، فتنقلب إلى مجزرة عامة بين أمم تملك كل منها من آلات التدمير ما لا يصح استخدامه لإهلاك بعضها بعضا .

حدث كل هذا فى كل أدوار الانتقالات الاجتماعية ، حيث لم تكن وسائل الإقناع مغنية ، وبقى إلى اليوم وفى العالم محكمة دولية للعدل ! وفى هذا دليل محسوس على أن الأمم بعد أن بلغت هذه الغايات البعيدة من فهم الحقوق الطبيعية ، وذاقت ثمرات السلام فى النواحى العلمية والمدنية ، لا تزال تتغلب عليها النزعة الوحشية ، بل تفاقم شر هذه النزعة فيها إلى حد أنها تندفع إلى الخضوع لها ، وهى تعلم أن نتيجة ذلك إهلاك النوع الإنسانى ، وتجريده من كل ما كسبه من ثمرات المدنية والاكتشافات العلمية .

كل هذا أثر الفلسفة المادية ، لأنه يتماشى ومبادئها من تنازع الحياة ، وبقاء الأصلح ، وقيام الأقوياء على أنقاض الضعفاء ، وما افتتنت به العقول من أمثال هذه الكلمات الفارغة التى لو بقيت ، لأدت النوع البشرى إلى عهد من الوحشية لا يمتاز عما كان عليه النوع الإنسانى فى أول عهده بالوجود .

هنا يشعر القارئ بأن النوع الإنسانى ينقصه لأجل أن يحيا حياة طيبة ، ويزداد علما ورقيا إلى ما لا حد له يقف عنده ، إلى عامل أدبى يحد من نزعته الوحشية ، ويصده عن الانقياد لطبيعته الحيوانية . عامل يلائم ما متع به من روح علوى ينزع به إلى السمو الخلقى ، والرقى الأدبى ، والترفع عن التوحش الحيوانى . هذا العامل الأدبى هو ما حمله الدين إليه من الاعتقاد بعالم ما فوق الطبيعة . والذى يسهل على الدين مهمته العظيمة ، ويسوغ له الإدمان على الدعوة إليه ، أن الإنسان قد أدرك وجود هذا العالم العلوى من يوم ظهوره على الأرض ، ولا يزال على ما كان عليه إلى اليوم ، بل زاد شعورا به وشوقا إلى الاستزادة من معرفته .

نعم إن الإنسان أطلق العنان لخيالاته فى إدراكه لذلك العالم ، فما ترك شيئا مما يتصوره من كائنات روحانية ، وشؤون علوية ، إلا ألحقه به تحت أسماء واختصاصات شتى ، تخالفت الشعوب فيها تخالفا كبيرا ؛ ولكنها اتفقت جميعها على أن ذلك العالم العالى هو مصدر القوى العامة ، منه تشع على جميع الكائنات ، وإليه يرجع تدبيرها وتقويمها ، وأن العالم الظاهر للحواس منفعل له انفعال الجسم للروح ، والمادة للقوى التى تدبرها .

ولما اتسعت للإنسان آفاق المعارف الطبيعية ، زاد تعلقه بذلك العالم واعتقد أن فيه مُثلها العليا وغاياتها البعيدة..

وجاءت الأديان فأيدت الشعور الفطرى به لدى الإنسان ، وأزالت عنه ما ألحقته به طفولة الأمم من الأباطيل والخرافات ، وجعلته مصدر أمر الله ونهيه ، ومتنزل قدرته التى تمد الكائنات بما يربّها ويكملها ، ومثوى الأرواح والملائكة ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من المشاهد العلوية ، والأنوار القدسية .

فالنفوس البشرية الممتعة بالعقل والإدراك ، والشعور الحاد بالجمال والقبح ، إذا نالها البشم من معاناة الحياة الأرضية ، وأصابها الرهق من مغالبة حوادثها ، وشعرت بالهلع والوحشة من تعاقب الكوارث عليها ، لجأت إلى ذلك العالم المحجوب عنها ، فاستمدت منه القوة والصبر على تكاليف الحياة ، واستلهمت الروح الذى يشع منه المبادئ العليا لمعالجة العوادى التى تحيط بها من كل جانب ، فتشعر بنفحة مشجعة ، وطمأنينة مثبتة ، قد لا تبالى بعدها إذا لقيت حتفها ، لأنها تعتقد أنها ستنتقل بعد هذا الجهاد الموبق إلى ذلك العالم العالى ، لتعيش فيه مع الأرواح العالية ، والنفوس الطاهرة .

لا جرم أن الشعور بوجود ذلك العالم يجعل للحياة الإنسانية ، وللعنت الذى يصيب الإنسان فيها معنى ساميا ، وعاقبة معقولة ، ويحمله على ملازمة الخلال النبيلة ، والمبادئ القويمة ، خلافا لمن لا يعتقد بوجوده ؛ فإنه إذا تجهمت له الحياة فكر فى ارتكاب الجرائم ، واقتراف المآثم ، ولم يبال بشئ غير نفسه ؛ فإذا عمت هذه العماية حتى صارت عقيدة لأمة ، فإنها تتجه إلى طريق الشر ، فلا تحترم عهدا ، ولا تلتزم

ميثاقا ، فإذا قاتلت وانتصرت ، نشرت الرعب فى النفوس ، وأشاعت الظلم فى الأحكام ، وما تزال ترتكب منكرات تليها منكرات ، حتى تصادفها قوة أكبر من قوتها فتلحقها بالأذلّين .

فإذا استشرى هذا الداء الإلحادى ، واعتنقته الأمم ، وأثمر العلم من الأسلحة المدمرة ما يكون استعماله وبالا على الحضارة الإنسانية ، فإن تلك الأمم لا تتأخر عن استخدامه فتهلك الحرث والنسل ، وينتهى العالم بعد هذا الدور من التناحر إلى حالة من البؤس لا يرضاها أشد الناس عداوة لبنى نوعه .

ولقد كانت المبادىء الالحادية قد قويت شوكتها فى القرنين الثامن والتاسع عشر فكان ثمرة ذلك حدوث حربين عالميتين ، لم تراع فيهما المرحمة الإنسانية ، ولا العدالة العرفية ، فضرب المتحاربون المدن بالقنابل الضخمة غير مبالين إن كانوا يقتلون بها جنوداً فى خطوط النار ، أم الأسر الوادعة المكتظة بالنساء والولدان ، والهرمى والزمنى منهم ، فأبادوا ملايين من النفوس البريئة رغما من التمدن المادى الذى أفاده العلم للناس ، و لم يغن بعض ما كانت تغنيه العقيدة الدينية فى مثل هذه الأدوار الحرجة .

ولو اتفق اختراع قنابل أشد فتكا كالقنابل الذرية ، وحدثت حرب جديدة ، لتراشق بها الخصوم ، وإذ ذاك تتصوح زهرة المدنية ، ويخبو نورها ، وترتكس الجماعات البشرية إلى أسوأ مما كانت عليه أيام جاهليتها الأولى .

وليس بعد هذه التجارب المحسوسة دليل على أن العلم الطبيعى لا أثر له فى تهذيب النفسية الإنسانية ، ورفع كابوس الوحشية عنها ، اللهم إلا ظاهراً من التقاليد الأدبية يستخدمها الناس فى مقابلاتهم ومعاملاتهم ، وقلوبُهم من الإنسانية الفاضلة ، والكمالات الخلقية هواء .

هنا يعترض علينا معترض فيقول : إن ما ذكرته عن الوحشية المستكنة فى نفوس المتمدنين ، رغما عن بلوغهم الغايات البعيدة فى العلوم الطبيعية ، صحيح لا يمكن التمارى فيه ، ولكن تاريخ الجماعات فى أشد أدوار حماستها الدينية لم تخل من قساوات أسوأ مظهراً ، وأفظع مخبراً مما ذكرت . ألم يذبحوا مخالفيهم فى الدين ذبح الأغنام ، ألم يلقوهم جماعات فى النيران ، ألم يرموا بهم من شواهق الجبال

لا لشيء غير أنهم لا يدينون بدينهم ، ولا يتعبدون بكتابهم ؟

نقول : نعم ، حدث كل ذلك من الجانبين ، ونحن لم نقل إن العقائد وحدها تبلّغ الجماعات إلى المُثل العليا من الكمال الصحيح دون أن تستضيء عقولها بأنوار المعارف الكونية ، وتتشبع نفوسها بحكمة الدين الحق ؛ لذلك جاء الإسلام داعياً إليهما معاً ، فقال تعالى : ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ ، حتى أنه حصر كمال العلم بالله والوقوف عند حدوده فى العلماء ، فقال : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ﴾ .

ودعا النبى ﷺ إلى طلب العلم ، وحث عليه فى أقوال أثرت عنه تثبت مُثلا عليا فى التحضيض عليه ؛ من ذلك قوله : « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ، فيرجح عليها » وقوله : « لموت عالم أشد على الله من موت قبيلة » وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

فالجاهل إذا تدين و لم يجد من تربيته البيتية ، ولا من ثقافته الحكمية ، من يردعه عن الشطط ، تخيل أن فى التنكيل بأعداء دينه ، والعدوان عليهم وسائل تحظيه من الله بأجزل المثوبات .

ومن الأمثلة التى نسوقها لبيان سمو الإسلام ، أن رجالا دخلوا فيه وآباؤهم كانوا لا يزالون على كفرهم ، فسألوا النبى ﷺ : هل يقتلونهم إن صادفوهم فى كتائب الأعداء ؟ فنهاهم عن ذلك احتراما لحرمة الأبوة ، بل نهاهم أن يقتلوا من أعدائهم الطاعنين فى السن ، والمصابين بمختلف العاهات ، والنساء والولدان وخدم المقاتلين ، ورجال الدين ، وحظر عليهم حرق دورهم ، وتقطيع أشجارهم ، وطلب إليهم أن لا يقتلوا أسراهم ، وأن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقتلوا المستسلمين ، فاتفق أن أحد أصحاب النبى قتل مستسلماً ، فغضب النبى ﷺ من ذلك وقال له : « إنى أبرأ إلى الله من عملك » فقال إنه استسلم والسيف يهوى على رأسه تفاديا من القتل . فأجابه النبى : وهل كشفت عن قلبه ؟ إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

كل هذا يدل على أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ درجة الكمال النفسى إلا بالدين مقترنا بالعلم ، وليس بأحدهما دون الآخر . بهذا التحديد العظيم فى آخر أدوار الإنسانية جاء الإسلام ، فجعل الدين والعلم توأمين متلازمين ، وعاملين متكافلين ،

وضرب أهله فى الأرض متشبعين بهذه الحقيقة ، فلم يجدوا علما إلا تدارسوه ، ولا فلسفة إلا اطلعوا عليها ، عاملين بقول نبيهم ﷺ : « خذوا الحكمة ولا تبال من أى وعاء خرجت » و« خذ الحكمة ولو من مشرك » ، فاستقدموا العلماء والحكماء من كل قطر ، وتركوهم على دينهم ، وأجروا عليه الأرزاق بسخاء لم يسمع بمثله فى أمة قبلهم ، وكلفوهم ترجمة كتب العلم والحكمة ، وأكبوا عليها درسا ونقدا ، وتحريراً وتقريراً ، حتى بلغوا الغاية منها ، وزادوا عليها زيادات لا تزال محل إعجاب أئمة التاريخ إلى اليوم .

ولو كان دينهم لم يحضهم على طلب العلم هذا التحضيض الذى لم يؤثر عن أية أمة سواهم ، لبقوا على جهالتهم ، فانقلبت فتوحاتهم شرا عليهم وعلى البشرية ، ولبادوا كما بادت الأمم المتعسفة قبلهم ، ولما بقى لهم ولدينهم الأثر الذى بقى إلى اليوم وسيبقى على الدهر .

فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه الناحية من تاريخهم ، فهى التى ستجعل من دينهم مفزعا للعالم كله فى مستقبل ليس بعيدا عنا ، وقد بدت بوادره فى الأفق ؛ فهلم لتحقيق هذا العهد الكريم ، عهد الإسلام الحق ، دين الإنسانية أجمع .

أما وقد بلغنا إلى هذا المدى ، فالذى بقى أن نقوله إن المدنية القائمة أصبحت مهددة بالزوال من ناحية العلم ، إذا لم تسعف بالعقائد الصحيحة . وقد أكرم الله هذا النوع الكريم فكشف له فى هذا الزمان الأخير من البينات المحسوسة ، على شرطه فى دراسة العلوم الكونية ، ما يوجد له إيماناً راسخا بما فوق الطبيعة ، وببقاء الأرواح بعد تركها للأجساد ، بما لم يدع شكا لمرتاب ، ولا حجة لمتردد : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ، وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) (*) .

* * *

---

(١) سورة الذاريات : ٢٠-٢١ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، الجزء الخامس ، سنة ١٣٦٧ هـ ، (صفحة ٣٨٥) .

وحدة الأمم ووحدة الأديان

شرع الله الإسلام ليكون دينا عاما للبشرية كافة بعد أن أصبح ذلك ممكنا بتواصل أممها ، وتعارف جماعاتها ، وتبادل تجاراتها وثقافاتها ، وقد اطرد هذا التقارب واتصلت حلقاته حتى لاحت بوادر الوحدة العالمية لبعيدى النظر منذ أجيال ، وصارت وحدة الدين أمرا لابد منه ، بل أضحت فى حكم الأمر الواقع لدى أهل النظر البعيد فى الشؤون الإنسانية . وكيف لا يكون الأمر كذلك والنفوس والعقول والعواطف البشرية تتفق فى مطالبها ووسائلها وغاياتها ، فإن تخالفت فى بعضها فإنما هو تخالف عرضى سببه تخالفها فى درجات ثقافاتها ، وتباينها فى أساليب تفكيرها . ولا يجوز لنا أن ننسى أن لاختلاف الأجناس واللغات والمدنيات ، تأثيرا خطيرا فى المباعدة بين الشعوب ، ولكن الكوارث الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية ، وضرورة هجرة الجماهير الفقيرة من بعض الأمم ، للعيش فى بلاد البعض الآخر ، تحت ضغط العوامل الاقتصادية ، كل ذلك أثر فى عقلية الجماعات البشرية ، وأضعف من شدة الروابط الجنسية ، ومهد السبيل للقول بإبطال الحروب ، وبضرورة إيجاد وشائج ودية بين جميع الشعوب .

فالوحدة العالمية فى طريق التكون ، وقد تواترت أشراطها بتأليف جماعات دولية للنظر فيما يشجر بين الأمم من خلافات إقليمية ، أو منازعات استعمارية ؛ بل تكلم كبار المتصرفين فى شؤون الأمم ، فى توزيع المواد الأولية الضرورية للصناعات ، مما يكثر فى بعض المستعمرات دون البعض الآخر ، على الأمم التى تحتاج إليها ، قطعا لذرائع الخلافات الدولية التى تجر إلى الحروب الوحشية . بل حدث ما هو أبلغ من ذلك فى موضوع الوحدة العالمية ، وهو نشوء رأى جديد لم يكن له أثر فى العالم الإنسانى ، وهو أن يكون للأمم أجمع حكومة عالمية تسوسها بروح المساواة والعدل ، فتنظر فى مصلحة كل منها كما تنظر الحكومة الواحدة فى مصلحة أمتها . وقد نادت بهذا المبدأ منذ سنتين جماعة فى أمريكا ، وصرح رجالات من أكبر الدول بأن هذا الضرب من الحكومة الجمّاعية هو الدواء الوحيد لحسم الخلافات بين الأمم ، وإبطال الحروب بينها ، وإقرار السلام والإخاء فيها .

هذا الاتجاه الإنسانى طبيعى محض ، ولا يحول دون تحققه إلا عوائق غير طبيعية من اختلاف الأجناس واللغات والعادات ، ولكن من يتأمل فى مصائر الأحوال ، ير أن هذه العوائق يضعف تأثيرها تدريجيا بانتشار اللغات ، وبترجمة المؤلفات ، وبتبادل السياحات ، وكل هذه العوامل تقوى يوما بعد يوم .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الانتقال بين الأقطار بواسطة الطيارات ، يعتبر من أقوى أسباب توحيد الشعوب . فالبلاد التى كان لا يمكن الوصول إليها إلا بعد نحو عشرين يوما بل أكثر ، يقيمها الإنسان على ظهر باخرة من ذوات السرعة المفرطة ، أصبح يمكن الوصول إليها فى ساعات معدودة . وقد تتحسن هذه الأداة إلى حد بعيد حتى تصبح المساوف الشاسعة التى تفصل بلاد العالم كأنها قرى متجاورة ، يذهب الإنسان إليها ويعود منها فى اليوم نفسه . فهل تسأل بعد هذا إلى أى مآل تؤول الاتصالات بين الشعوب بهذه السرعة ، وإلى أى مدى يبلغ التعارف بينها ؟

ولا تنس أنه كلما أتقنت الأمم فنون الاجتياح والتخريب ، واستكملت وسائل إبادة أعدائها بالقوى الذرية والأشعة الكونية ، وما سيكشف عنه العلم من الذرائع التى لا تبقى ولا تذر ، قلنا لا تنس أن غريزة حفظ الذات تدفع بالأمم ، تحت قيادة الغرائز العليا للإنسانية ، إلى ما يضع حدا لمتابعة هذه المجازفات الجنونية . وهل يقوم بهذه المهمة الخطيرة غير إخاء عام ينتشر بين آحاد النوع البشرى يحميهم غوائل أنفسهم ؟

إذا صح كل هذا فلا محيد عن حدوث إخاء عام بين البشر ، تتبعه وحدة سياسية شاملة لا تسمح للخلافات أن تتسرب إليهم . وتجىء وحدة التربية والتعليم فتكتسح من الأذهان كل ما علق بها من بقايا الخرافات القديمة ، والأوهام العتيقة ، فتتهيأ الفطر لقبول دين عام يكون من السمو فى العقائد ، والتنزه عن الشكليات ، بحيث يتفق مع الفلسفة فى أرفع معانيها ، فتتجه الأفكار للإسلام لأنه آخر الأديان نزولا ، وقد صارح الناس بأنه الدين العام للعالم كافة . فلو أضفت إلى ذلك أنه شامل لجميع ما يرجو الناس أن يجدوه فى الدين العام من الأصول والوسائل ، لما ساورك شك فى أنه بالغ تلك المنزلة لا محالة .

هنا قد يقول قائل : إنك إذا كنت قد أحسنت فى بيان الأسباب المهيئة لوحدة الأمم ، فلم تبلغ هذا الشأو فى التدليل على اختيارها للإسلام ديناً لها ، فقد أغفلت أثر العلم فى تجريد الناس من العقائد ، وفى اعتبارها من الصور الذهنية لشعوب لم تبلغ درجة النضج فى تقديرها للوجود وقواه وعوالمه . وقد فرغ العلماء من أمر الأديان واعتبروها موضوعات خيالية ؛ تلهو بها الشعوب فى أدوار طفولتها .

نقول : إن هذا القول ، اتضح للعلم فى هذا العهد ، أنه بعيد عن الصواب ، وأن إجماع العالمين فى جميع العهود والبيئات على التدين لم يكن مظهراً للوساوس ، ولكن تعبيراً عن حقيقة مرتكزة على الفطرة البشرية ، لم يتحقق العلم من وجودها إلا منذ قرن ، أى حينما تحقق بعد بذل جهود مضنية فى البحث من وجود روح للإنسان ، وأن هذه الروح تنزلت من عالم علوى لتبتلى فى هذه الحياة الأرضية ، ثم تعود إليه بما كسبت من ثقافة وعلم ، لتتابع رقيها فى عوالم علوية بعد هذه الحياة الأرضية . وقد أمضى مئات من هؤلاء العلماء فى كل أمة متمدنة عشرات من السنين فى تحقيق الاتصال بالروح البشرية بوساطة التنويم المغناطيسى تارة ، وبوساطة الاتصال بالأرواح التى تجردت من أجسادها تارات أخرى ، مستخدمين فى تمحيص هذه البحوث الأسلوب العلمى على أكمل معانيه ، حتى تحققوا من وجود عالم روحانى وراء هذا العالم تنتهى إليه كل نفس بشرية بعد أن تخلع ثوبها المادى الذى تعيش به على الأرض . وقد دونوا ما رأوه من الأدلة ، معززة بالوسائل المادية التى توسلوا بها ، فى مؤلفات قيمة لا سبيل إلى تجريحها . وقد تألفت مؤتمرات عديدة فى أمهات المدن العالمية لتقرير ما وصلت إليه جهودهم المشتركة ، ونشرت نتائج مباحثاتهم فى كتب خاصة . فهذه البحوث مجتمعة كشفت البواعث الطبيعية للتدين بما لا يدع شبهة لباحث .

وهنا يجمل بنا أن نسرد للقارئ ما يقوم عليه الإسلام من الأصول الأولية ، والمبادئ الأساسية ، ليرى بما لا يدع له شكا أن الإسلام هو الدين الذى لا محيص عن الأخذ به عند ما يصل الإنسان إلى هذا الحد من الرقى العقلى ، والتقدم العلمى ، وأنه سيصبح فى آخر الزمان دين العالم كافة ، فإليك بإيجاز :

١ – الإسلام لا يضع لرق الإنسان العقلى والمادى جدا .

٢ – ويعترف بحق الإنسان فى النظر والاستدلال ، بل يحثه عليهما ، ولا يعتد بما لا دليل عليه ، بل يعتبره هراء محضا لا يصح أن يلتفت إليه .

٣ – ويحضه على طلب العلم ويعتبر الاجتهاد فيه خيرا من العبادة .

٤ – ويحرضه على التقاط الحكمة ولو كان قائلها مشركا .

٥ – ولا يمنح لطائفة من الأمة من الامتيازات ما يجعل طاعتها واجبة .

٦ – ولا يفرق بين الأجناس والألوان واللغات فيجعل بعضها أفضل من سواها . فقد قال النبى ﷺ : « ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو عمل صالح » .

فالإسلام بهذه المبادىء الأولية أتى على جميع التقاليد التى بليت بها الأمم من وضع الحدود لنشاط العقول ، ومن الحيلولة بين المفكرين والعلماء ، وبين العمل على ترقية الجماعات ؛ أو على تغيير النظم بما هو أفضل منها ، أو على تهيئة أسباب الانتقالات الاجتماعية والفكرية التى لا محيد عنها لدفع الأمم لبلوغ الغايات البعيدة من العلوم وتطبيقاتها . وهو بعدم منحه امتيازات لطوائف معينة من الشعوب جعل الباب مفتوحا أمام أهله لبلوغ المُثل العليا بدون قيد ولا شرط ، ومنع بذلك حدوث الانقسامات الاجتماعية التى تطوح بالشعوب إلى المذاهب المتضادة مما يضر بنشاطها الدينى والدنيوى معاً (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى والعشرون ، الجزء الرابع ، سنة ١٣٦٩ هـ ، (صفحة ٢٩٢)

العالم يجب أن تتعارف شعوبه

كانت الأمم إلى عهد الدعوة الإسلامية منقسمة إلى جماعات وقبائل وشعوب وأمم مستقل بعضها عن بعض ، لا تجمعها جامعة دينية ولا مدنية ، بل كانت متعادية متناحرة كأن بينها ثارات موروثة ، حتى أن القبائل التى تعتزى إلى جنس واحد كانت على هذه الشاكلة من التعادى والتناحر . وقد مضى على الناس ، وهم على هذه الحالة ، آلاف من السنين لم يقم فيهم رجل واحد بدعوة إلى توحيد هذه الجماعات تحت ظلال أعم رابطة تجمع بينها ، وهى الإنسانية ، مع أن كثيرا من هذه الأمم بلغت شأوا بعيدا من المدنية ، كالأمة الصينية والهندية والمصرية والبابلية إلخ ، ثم تلتها الأمم اليونانية والرومانية والقرطاجية ، وقد بلغ فيها العلم والفلسفة إلى حدود بعيدة ، واتصلت لديها العقلية الإنسانية بأوج عال من المدركات التجريدية ، ومع ذلك ظلت على ما كانت عليه من الانقسام المزرى بكرامة ما كانت عليه من الفلسفة والعلم والمدنية . أفلا يكون من العجب العاجب أن تظهر هذه الدعوة لأول مرة فى تاريخ البشرية من صميم جماعات شتى لم تصل بعد من أطوار الاجتماع إلى درجة شعب أو أمة ؟

لا جرم أنها دعوة خارقة للعادة ، ولا يعقل تولدها فى قبائل لم تصل بعد إلى ما عليه غيرها من الوحدة الجنسية الخاصة ، فكيف تطفر إلى الوحدة النوعية العامة دون أن تجتاز أدوار الاجتماع الأولية ؟

هذه مسألة تحير الباحث عن العلل الأولية لأطوار المجتمعات المتتالية ، فندعها الآن وننظر فى موضوعنا نفسه من الناحية الفلسفية ، فهل من الممكن أن يوجد بين الأمم تعارف يفضى إلى إبطال الحروب ، وإلى التعاون على الاضطلاع بتكاليف الحياة ؟

يقول بعض الباحثين نعم ، ويقول بعضهم الآخر لا . فمن يجيب إثباتا يعتمد على ما سيكون فى المستقبل البعيد من الوحدة العلمية والوحدة العملية والوحدة الاقتصادية ، مستنداً إلى أن الأمم تتقارب فى ثقافتها العلمية تقاربا محسوسا سيتأدى

بالجرى عليه إلى الوحدة ، لأن العلم ما دام قائما على دستوره لا يمكن أن يختلف فى بلد عنه فى بلد آخر ، والتوحد العلمى يتبعه التوحد العملى والاقتصادى ؛ ومن جهة أخرى التنازع بينها يجرها إلى الفوضى والانحلال ، من هنا ستضطر محفوزة بحب البقاء إلى التفاهم فيما بينها ، وحل مشكلاتها على وجه ما تفاديا من استخدام القوة للحصول على أغراضها .

ثم إن المواد الأولية التى هى محل النزاع بين الأمم غزيرة فى الأرض تكفى جميع سكانها وتزيد عن حاجتهم ، فلا موجب لاختصاص بعض الأمم بها وحجبها عن سائرها . وقد تفاوضت الأمم ذوات المستعمرات الكبيرة وتراضت على توزيعها على مقتضى العدالة ، باعتبار أن الاختصاص بها مثار أكبر الحروب العالمية .

فهذه المقدمات إذا تمت كان تعارف الجماعات البشرية من ثمراتها الأولية .

أما الذين يقولون بعدم إمكان تعارف الأمم ، فيعتمدون على ما بين الجماعات البشرية من العصبيات المختلفة من جنسية ولغوية ودينية ، وعلى استبعاد تراضى الأمم على توزع المواد الأولية فيما بينها بالعدل ، وعلى ما تشعر به الأمم الكبرى من الكبرياء والغشرية فى معاملة الأمم الصغرى .

والذى يثلج عليه الصدر هو أن كل هذه الحوائل يمكن أن تزول بتأثير الروح الديموقراطية وتأصلها فى النفوس ، وما ينضم إليها من كراهية الحرب واعتبارها بقية من بقايا الوحشية ، ووسيلة غير جديرة بكرامة الإنسانية .

والمشاهد المحسوس أن الأمم تعمل جاهدة على إبطال الحروب بإقامة محكمة دولية تفصل فى كل ما يشجر بين الجماعات من خلاف ، وتأليف جيش عالمى يوجه لتأديب كل جماعة تخرج على هذا النظام العام ، . فإذا تم للأمم المجتمعة اليوم وضع هذا النظام ، تم التعارف المنشود بين الأمم ، وتحقق حكم القرآن فى أنّ هذه الأمم خلقت لتتعارف وتتعاون ، ولم تخلق لتتناكر وتتناهب ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] ، فكانت هذه الآية الكريمة

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

من المثل الإسلامية العليا التى أنزلت إلى الآخذين بهذا المبدأ ليكونوا فى مقدمة الحاملين لرسالة المدنية ، والروح الديموقراطية ، والوحدة العالمية .

والناظر فى تاريخ الأمم الاستعمارية يجد أن أية أمة من الأمم لم تنظر إلى الأمم الخاضعة لها نظرة أخوية غير الأمة الإسلامية ، عملا بمدلول هذا المثل الأعلى . فقد كانت المعاملة العادية للأمم المقهورة هى نظام العبودية إلى أقصى حد ، بحيث لم تتقرر حقوق لها تطالب بها أمام العدالة ولا أمام الرأى العالمى العام ، وأسوأ ما شوهد من أحوال الاستعمار معاملة الدولة الرومانية للأمم التى خضعت لها ، فقد كانت تعاملها معاملة الأسرى لا أكثر من ذلك ولا أقل ، و لم يكن لما يصيبها جملة أو بعض آحادها من المظالم صدى يتردد فى ناحية ما ؛ ولو وصل همس منه إلى آذان الحكومة القائمة ، أهملته كأنه لم يكن . فإذا قابلت هذا العسف الشائن بما كان عليه الأمر عند المسلمين أيام صولتهم ، وجدت فارقا لا يمكن إدراك مداه يدل على أن العدل الإلهى نشر روحه على هذه الجماعات المقهورة فرفعها إلى درجة الأخوة للأمة الغالبة التى كان لها فى ذلك العهد خلافة الأرض .

ماذا أقول ؟ وجدتَ أن هذه الأمة الغالبة قد جعلت ممن تغلبت عليهم هيئة أمم متحدة تحكم بقانون واحد ، وتعامل بالمساواة المطلقة ، لا فرق بين قاهر ومقهور ، ولا بين عربى وأعجمى ، ولا بين أبيض وأسود .

هذا لا يكاد يصدق ، ولكنه ثابت مقرر لا سبيل للشك فيه ، وقد أفضى إلى نتيجة ضخمة لا شَبيه لها فى التاريخ ، وهى دخول الناس فى هذا الدين جماعات جماعات ، بل دخلته أمم برمتها ، و لم يمض عليه مائة سنة حتى كان عدد أتباعه مائة مليون نسمة ، وأمكن أهله أن يؤسسوا ملكا لم ينبغ لأمة فى التاريخ القديم ولا فى العهد الحديث ، وفى الوقت نفسه بلغت من الرقى العلمى إلى حد كانت معه أمبراطوريتها المترامية الأطراف تنشر النور فى جميع بقاع الأرض ، وكان لا فرق لديها بين بلد شرقى وبلد غربى ، ولا بين عربى وأجنبى ، فعملت فى الأندلس وفارس ومصر والمغرب وغيرها ما فعلته فى عقر بلادها من تأسيس الجامعات ، وبناء المراصد ، وإشادة المكتبات ، و لم ترصد لنشر دينها جماعة كالتى يراها الناس فى بلاد الشرق تابعة لبعض الدول ، اللهم إلا دعوة إلى الإسلام بالتى هى أحسن ، ودون تكالب على الناس ، أو تضييق عليهم .

ماذا تنتظر غير هذا من أمة كان من مُثُلها العليا أن الناس كلهم سواء ، وأنهم جميعا لأب واحد وأم واحدة ، وأن التفاضل بينهم لا يكون بالأصل ولا باللون ولا باللغة ، وإنما بتقوى الله والوقوف عند حدوده ، قلنا ماذا تنتظر منها غير هذه الآثار العمرانية ، والسيرة المثالية ؟ وماذا تنتظر من الأمم الأخرى التى كانت تزعم أن جنسها خير الأجناس ، وأن لغتها أفصح اللغات ، وأن لونها أدل على سموها من جميع الألوان ، وأن ما هى عليه من الدين أفضل الأديان ؛ قلنا ماذا تنتظر منها غير ماحفظه التاريخ من ظلم للمقهورين ، واستعباد لهم لا يعرف له حد فيقف عنده ؟ فكان الرجل يقتل الفرد أو الجماعة منهم فلا يطالب بدمه أو دمائهم أحد . وكان ينتهب أموالهم وينتهك حرماتهم فلا يجد المتهضم من يستعديه عليه ليحد من إيذائه .

هذه كانت حالة المسلمين وحالة الأمم الكبرى ، فما أعظم الفارق بينهما ! فارق لا يمكن فهم علته إلا إذا اعتبرنا أن ما كانت عليه الأمم من نظم ، اقتضتها طبيعتها البشرية ، وأوهامها التقليدية ، وأن ما كان عليه المسلمون تعاليم إلهية ، تنزلت عليهم من الأفق الأعلى ، لتدفع بالإنسانية إلى حالة من التطور ما كانت لتصل إليها بفضل مجهوداتها الذاتية .

ودليلنا على ذلك أن الأمم المتمدنة ، وقد بلغت شأوا بعيدا من العلم والمدنية ، لم تصل حتى اليوم تحت تأثير الدوافع الطبيعية ، والحوافز الحيوية ، إلى مثل المبادئ التى استهدى بها المسلمون أول نشوئهم فى تطوراتهم الاجتماعية .

وليس مما يعقل أن يفرض أنه قد يخرج هذا الانتقال الضخم فى المبادئ الأدبية التى لم تصل أمة إليها فى أى عهد من عهود التاريخ ، ولا أعظم أمة من أمم هذا العصر أيضا ، من صميم قبائل كان يأكل بعضها بعضا ، لا تعرف للإنسانية حقا ، ولا للعدالة رسما ، إلا ما تصوره لها أوهامها العتيقة ، وتقاليدها الموروثة .

فدليل الوحى الالهى يتجلى فى هذا المجال كتجليه فى كل مجال قارنا فيه الأصول الإسلامية بالمبادئ الإنسانية (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، سنة ١٣٦٦ هـ ، (صفحة ٦٠٥) .

الدفاع عن الأخلاق الصالحة

الدفاع عن الأخلاق الصالحة فى الجماعات قديم الوجود ، لا لغرض دينى فحسب ، لأن بناء الاجتماع لا يقوم إلا عليها ، فلو تدهورت أو تحولت تأثر بناء الاجتماع بقدر ذلك . والاجتماع البشرى ليس كالاجتماع الحيوانى قائما على محض الغرائز الطبيعية ، بحيث لا يستطيع الحيوان عنها تحولا ، ولكنه قائم أيضا على علاقات أدبية بين الأفراد ، ورُبُط من ضروب شتى إذا كان بعضها غريزيا فهو فى النوع الإنسانى كأكثر غرائزه يخضع لإرادته ، فهو مخير بين أن يقوم بحق الاجتماع فيؤدى لمجتمعه الواجب له عليه ، وبين أن يقصر فيه أو يهمله ، فيعرض وطائد مجتمعه للوهن ، وروابط وحدته للتفكك . وهذا هو الذى حفز حماة المجتمعات من كل ضرب على تدارك هذه الحالة ، كل فى الدائرة الخاصة به ، ليدفعوا عن وجود الجماعة شراً مستطيرا هو ارتخاء أواخىّ المجتمع ، وتداعى أركانه للانهيار بفعل أهله .

قلّ أن تصادف أمة كالأمة الإسلامية يشعر أهلها بقدر الأخلاق ، ويدركون مبلغ تأثير تدهورها فى إضعاف دولتهم ، وإضاعة عزتهم . ولقد كان هذا التقدير وذاك الإدراك يكفيان فى حملهم على التحلى بمناعة لا تضمحل ضد كل انحراف خلقى أو عدوان أدبى ؛ أو على القليل يجعلهم أقرب إلى أمهات الفضائل من سواهم من الجماعات التى لم تبلغ بواسطة الأخلاق إلى مثل ما بلغوا ، ولا أضاعت بسبب إهمالها مثل ما أضاعوا .

هنا يحار الباحثون فى تعليل هذا الموقف ، فمنهم من يعزوه إلى ضعف الإيمان فى القلوب ، ومنهم من يرجعه إلى غلبة الجهالة على النفوس ، وسوادهم الأعظم يعزوه إلى الحرية التى أطلقت للناس يأتون تحت حمايتها ما يشتهون . والواقع أن العلة فى عجز المسلمين عن معالجة أنفسهم بما لديهم من أصول الحكمة التى يشيدون بذكرها فى مساجدهم ، ويتلاومون على إهمالها فى مجالسهم ، مع تملُّمهم علما بخطورة ما هم فيه ، ترجع إلى أن العالم المتمدن كله أصبح اليوم ، بسبب الصلات الثقافية

والاقتصادية والأدبية ، أمة واحدة يتأثر مجموعها بما يتسلّط عليها من الأهواء والأوهام والانحرافات المختلفة . فطبيبنا الاجتماعى وهو يشخص الداء الذى بين يديه فى بلد مثل بلدنا ، يجب عليه أن لا يقف من تحليله عند حد حتى يصل إلى هذه العلة .

وكيف لا يكون الأمر كذلك ونحن نستمد من العالم المتمدن كل معارفنا وصنائعنا حتى آدابنا وعاداتنا وأزيائنا ، فما اندفعوا فى شيء أو أقلعوا عن شيء ، إلا اندفعنا فيه أو أقلعنا عنه . وما نشكوه من تهتك الرجال والنساء ، ومن تطرف الكافة فى الإباحة والتسامح فيما لا يجوز التسامح فيه ، قد شكا منه حكماء الغربيين فى القرن التاسع عشر ، وكتبوا فيه كتابات بلغت الغاية القصوى فى السمو ، ولكنها لم تفد فى وقف هذا الزحف الإباحى ، كما لم تفد كتاباتنا نحن الآن .

فما السر فى عجز الحكمة إلى هذا الحد فى أمم تعرف مكانتها العالية من مجموعة الثمرات الأدبية للقوة العقلية الإنسانية ، وتعرف إلى جانب هذا آثار الأخذ بها على تقدم المدنية ، وآثار إهمالها فى دهورة تلك المدنية ، بل فى إسقاط دولتها ، وثل عرشها ، وإعادة الناس إلى دور الوحشية ؟

السر فى خيبة الحكمة مع التحقق من آثارها فى العالم سلبا وإيجابا ، هو تغلب المذهب المادى على عقول الناس ، ويأسهم من البقاء بعد الموت فى عالم بعد هذا العالم . فماذا ترجى من أحياء أدركت ذواتها ، وغرس فى جبلتها حب البقاء والخلود ، ترامت إليها تعاليم تجتهد فى أن تثبت لها أن لا روح للإنسان بالمعنى الذى تقول به الديانة ، وتؤيدها فيه الفلسفة ، وأن لا وجود لعالم يُدَّعى زوراً أنه موجود فوق هذا العالم ، والواقع أن الإنسان كالحيوان يعيش الأمد الذى قُدِّر له ، ثم يدركه الهرم فلا يزال به حتى يجعله حرضا ، ثم يحمل عليه حملة صادقة فلا يتركه إلا وهو جثة هامدة .

ماذا تؤمل أن تجد فى قلب إنسان تسكنه مثل هذه الثورة التى لم يُمن الإنسان بأوجع منها على فؤاده ، ولا بأقدر منها على إحداث انقلاب خطير فى كل وجهات نظره ، وفى مبادئه وغاياته ، وفى أخلاقه وآدابه ، بل فى صميم كيانه ؟

يضرب بعض الفلاسفة مثلا بسيرة بعض كبار الملحدين ، من الاستقامة

وحسن السمت ، وجميل الشمائل ، وسلامة القلب ، ويدعون أن انتشار اليأس من الحياة الخالدة لا يجر فى العالم الإنسانى إلى شىء مما يخشاه الفلاسفة الاعتقاديون من الارتكاس إلى الوحشية .

نقول : إن وجود آحاد أو عشرات بل مآت أو ألوف من الملحدين ، على أحسن ما يرجوه الفيلسوف الخلقى من جميل السيرة ، وحسن السمت ، لا يدل على أن يأس الإنسان من البقاء بعد الموت لا يؤثر على أخلاقه وآدابه بشىء ؛ لأن هؤلاء الملحدين (الكملة) الذين يضرب بهم معارضونا المثل ، نشأوا فى جو عالمى مشبع بالعقائد ، وقد قالوا هم أنفسهم إنهم أمضوا من أعمارهم متمسكين بعقائدهم الوراثية سنين ، وإنما طرأ عليهم الإلحاد بعد ما نضجت عقولهم له ! فهؤلاء لا يمكن أن يُعتبروا نابتة للعهد الإلحادى بوجه من الوجوه .

إنى والله لأعجب من رجال نالوا حظا من الفلسفة ، وعرفوا طرفا من تطور النفسيات بتطور المبادئ العلمية ، يدفعهم تأييدهم للمذهب المادى إلى القول بأن قنوط الإنسان من الخلود لا يؤثر على نفسيته بشىء ! .

المسألة بديهية ، لا تحتاج إلى التورط فى الأصول البسيكولوجية إلى حد كبير ، فليفرِّغ الإنسان قلبه من الشواغل برهة من الوقت وليعرض على نفسه المبدأ المادى ، وهو أن ليس فى الوجود شىء أرقى من المادة ، وأن ليس فى العالم كله غير الأثير يولد المادة فتندفع للتطور تحت قيادة نواميس ثابتة مقررة ، فينشأ منها النبات والحيوان والإنسان ، فتدور عليهم الأدوار من النشوء إلى الشيبة فالهرم ، ثم يدركهم التحلل فيزولوا ويجىء من ورائهم أفواج أخرى ثم أخرى فأخرى إلى ما لا نهاية .

إذا عرض الإنسان على نفسه هذه الآراء ، ظهر له أن الوجود لا يعدو أن يكون مهزلة ، بل قالوا إنه مهزلة ، وقالوا إنه لا يستحق أن يُعاش فيه ، وقالوا إن قتل الإنسان نفسه خير من صبره على حياة سخيفة من هذا الطراز ، فماذا ينتظر البسيكولوجى أن تكون عليه نفسيات تنشأ فى وسط هذه الآراء السلبية المشبعة باليأس والسخر ، إذا مضى عليها مدة كافية ؟

إن هؤلاء الفلاسفة يغرهم ما يجدونه أمام أعينهم من نفسيات ملحدة عالية ، ويغيب عنهم أن هذه النفسيات تطورت تحت سلطان الديانة والفلسفة ألوفا من السنين حتى بلغت إلى ما بلغت إليه من حسن السمت ، وجمال الشمائل . فماذا يكون الحال فى نظرهم متى صمت الدين ، وانقلبت الفلسفة إلى مادية باحتة ، ومضى على ذلك وقت يكفى لأن تتطور هذه المبادئ وتستقر ، وتكتسب قوة التأثير التى تكون للمبادئ المتفق عليها عادة ؟ هل تبقى فى النفوس تلك الصفات التى تولدت وأزهرت تحت سلطان العقائد الدينية والمبادئ الروحية من هدوء القلب ، وصبره على الشدة ، وقناعته بالقليل إذا لم يتسن الكثير ، والعطف على الضعيف وإيثار الغير على النفس ؟

ثم قل لى إلى أى معنى يتحول اسم الشرف والعزة والكرامة والعرض ؟ بل ابحث ماذا تنتحل فى ذلك العهد من المعانى لكلمات العفة والأمانة والنخوة والمروءة والفضيلة ؟

يقول المعترض : كأنك بقولك هذا تزعم أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا مخدوعا بعقائد من مولدات الخيال ليس لها وجود ، فإذا ما وصل إلى دور الرشد وأدرك أن كل ما كان عليه أيام صباه كان من هذيانات الطفولة ، واتجه ليعيش معيشة الرجولة ، ارتكس إلى الوحشية ، وباء بخسران مبين ؟

نقول : لا ، ليس فى المسألة خادع ولا مخدوع ، فإن للإنسان حاجات نفسية كما له حاجات جسدية كلتاهما فى درجة واحدة من الضرورة . والذى شاهدناه أن الإنسان الأول كما بحث عن غذائه الجثمانى ، بحث عن غذائه النفسانى ، ورأيناه كثيرا ما ضحى بنفسه للثانى طواعية بدون إجبار .

هنا يتدخل الفيلسوف المادى ويقول : الإنسان لم يكن مخدوعا فى تطلبه للغذاء الجسدانى ، ولكنه كان مخدوعا فى تطلبه للغذاء الروحانى .

وهذه تفرقة لو فطن لوهيها الفيلسوف المادى لما اعتمد عليها فى مثل هذا المعرض ، لأن فى طيها دعوى تنافى التثبت الفلسفى المتفق عليه . وهذه الدعوى هى أن ما عليه المذهب المادى من النفى المطلق لكل وجود روحانى هو الحق الذى ليس

وراءه مذهب ؛ والواقع أن بحوثا عظيمة جدت فى القرن الأخير لإثبات وجود العالم الروحانى على مقتضى الدستور العلمى من المشاهدة والتجربة ،وقامة المذهب المادى (جمع قيّم) يعرفون ذلك ويعترفون بأن عددا كبيرا من أمثالهم صباً إلى المذهب الروحانى وصاروا من أقوى وأبرز أشياعه ، واعترفوا بخطئهم السابق ، ونشروا اعترافهم به فى كتب ورسائل لا تحصى . فهل يرى الفيلسوف المادى أن هذا التصدع السريع المستمر فى صرح مذهبه يفضى به إلى البقاء والخلود ؟!

* * *

هذا بحث فرعى نشأ من طبيعة الموضوع الذى كنا نعالجه فى مفتتح هذه المقالة ، فلنعد إليه ولنقل : إن كل ما أصابنا ويصيبنا من فشل فى محاولتنا إصلاح أنفسا ، لم يكن سببه أننا موتى أو غير عابئين بالنذر ، ولكن سببه أننا جزء من الإنسانية المتمدنة ، فما يصيبها من أعراض وأمراض يصيبنا مثله ، وهى اليوم مصابة بأعراض إلحادية وإباحية سرت إليها من إلحاح التعاليم المادية عليها نحو ثلاثة قرون متوالية ، وقد أناخت هذه التعاليم بكلا كلها لدينا ، واتخذت لها سبلا إلى عقولنا وأذواقنا ، وتطورت عاداتنا وأزياؤنا على موجبها ، فتولد منه الشكل الذى نحن عليه اليوم ، فإن كنا نعجز عن علاجه فذلك لأن الفرع لا يتأثر بالعلاج ما دام أصله لا يزال على إصابته .

فهل نضع أيدينا على صدورنا ، ونلبث صامتين لا نحرك ساكنا ، حتى يتماثل مريضنا الكبير من علته ؟

لا ، لا يقول بهذا عاقل ، ولكنا نعمل كما يعمل المريض الكبير نفسه على إزالة العلة الأصلية ، وهى الفلسفة المادية ، لا بالأساليب الجدلية ، والمناوشات الكلامية ، ولكن بالطرق العملية ، والدلائل الحسية . وإذا كنا نحن هنا لا نستطيع أن نجاريه فى هذا المجال ، لضعف وسائلنا ، وقلة عنايتنا ، فلا يكن حظنا من العمل أقل من نشر بحوثه الضافية ، وأدلته الدامغة ، كما فعلنا ولا نزال نفعل فى هذه المجلة ، فلا يكاد يخلو عدد منها من نقل بحث تشكيكى فى الأصول المادية التى كانت سببا

للغرور العلمى ، أو خبر معركة بين الماديين وخصومهم يتجلى من ورائها ضعف حجة الملحدين ، وَوَهْى أصولهم .

بهذا وأشباهه تخدم الأخلاق ، بل يخدم الدين نفسه ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويتم إزالة الفلسفة المادية من المجال العلمى نهائيا ، وليس هذا العهد ببعيد (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، سنة ١٣٦١ هـ ، (صفحة ٤٣٣) .

الحاجات الإنسانية

وأثرها فى بناء الجماعات ، وإقامة المدنيات

يخيل لمن لا بصيرة له فى العلوم الاجتماعية أن تقليل الحاجات المادية فى الأمم يحفظ عليها ما لها ، ويكفل لها استقلالها ، ويجعلها أقل احتياجا إلى سواها ، فترى كل همه مصروفا إلى مكافحة ما لا فائدة له فى نظره من الكماليات رجاء أن ينشىء شعبا لا تتعدى مطامعه ما يقيم صلبه ، ويكسو جسمه ، لينصرف بكليته إلى الكمالات الروحانية ، والترقيات المعنوية . وهذا خطأ خطير يقع فيه أكثر النصحاء والمرشدين . وقد تسببوا خلال العصور فى إهلاك جماعات دانت لتعاليمهم فلم تلبث أن انحلت روابطها ، وفنيت فى أجساد أمم أخرى ، ومنها جماعات لم تصادف مزاحما لها فى الحياة بقيت على ما كانت عليه قرونا كثيرة فى حالة تحجر ووقوف .

هذا يحفزنا لأن نعقد فصلا فى الحاجات الإنسانية وأثرها فى بناء الجماعات وإقامة المدنيات نقتبسه من صميم العلم الاقتصادى ، نرجو أن يستهدى به من عهد إليه إرشاد جماعة من الجماعات ، سواء بإلقاء الخطب فى المجامع ، أو بالوعظ فى المساجد .

الحاجات هى العوامل المولدة لحركات الجماعات :

الحاجة الحيوية التى يشعر بها الإنسان هى العامل الوحيد المولد للحركة المعاشية فى العالم ، وهى بهذا الوصف أساس علم الاقتصاد السياسى .

كل كائن حى لأجل أن يصل إلى كماله الشخصى مضطر لأن يستعين بالعالم الخارجى ، وأن يستمد منه عناصر يحيا بها حياته المقدرة له . وهو مضطر لبذل مجهود للحصول على حاجاته ، لأن حصوله عليها يدفع عنه ألما ، والحرمان منها يوقعه فى أذى .

لحاجات الإنسان طبائع مختلفة عظيمة الخطر ، ولكل طائفة منها قوانين اقتصادية نحصر الكلام عليها فيما يلى :

(**أولها**) الحاجات الإنسانية غير محدودة العدد . وهذا مما يميز الإنسان عن الحيوان ، وهو الباعث على المدنية بأوسع معانى هذه الكلمة .

وقد شوهد أن حاجات النوع الإنسانى تتدرج فى نوعها وقيمتها على نسبة تقدمه فى سلم الحضارة . وحياته من هذه الناحية كحياة الطفل من نوعه . فإنه عند ميلاده لا يتطلب أكثر من الغذاء المناسب له والمهد ، ثم تنشأ فيه بنمو جسده احتياجات للأغذية المختلفة والملابس المركبة والألاعيب المروضة ، ولا تكاد تمضى عليها سنة حتى تنشأ له حاجات جديدة . كذلك الحال فى الجماعات البشرية ، فإننا اليوم وقد قطعنا أشواطا فى المدنية نجد أنفسنا فى حاجة ماسة إلى أشياء تتعلق بالصحة والنظافة والتعلم والتراسل والسياحة لم تكن معروفة لدى أسلافنا . ومما لا مشاحة فيه أن أحفادنا سيشعرون باحتياجهم لأكثر منها ، ولو أتيح لنا أن نقف على خبر كائن أرقى منا فى بعض الكواكب ، لآنسنا عنده احتياجات جمة لأمور لم نتخيلها نحن الآن تخيلا .

إذا علمت ذلك فما حكمك مذ الآن فى الأمم التى تقنع بالقليل من الحاجات ولا تمد مطامعها إلى ما يبعد عن الدائرة التى حصرت نفسها فيها ؟ هذه الأمم إذا بقيت مكتفية من الغذاء بشىء من الفاكهة والخضر واللبن ، ومن المأوى بجدار يقيها لفح الشمس ، فبشرها بالجلاء العاجل عن هذه الأرض التى لم تستطع الاستفادة منها مع ما متعت من القوى والقدَر التى تبلغ بها أرقى مراتب الوجود المادى والمعنوى .

هنا يمكن أن يقول قائل : هل ترقى الإنسان فى الاحتياج خير له أو شر عليه ؟

الجواب يحتاج لشىء من التفصيل . ذلك أن هذه الحاجات التى تنشأ للإنسان هى عوامل تحفزه للعمل ، وتضطره للتفكير فى الابتكار والاختراع ، وهذا يدفعه للترقى فى العلم ، فإذا أردنا أن نعمل على تقليل هذه الحاجات كنا عاملين على حذف هذه العوامل ، فتقل الجهود العقلية ، وتبطؤ حركة الحياة الاجتماعية ، ويهبط مستوى الثروة العامة .

ومما يجب أن يعلم فى هذا الموطن أيضا أن الحاجات الاقتصادية المحضة ليست مجردة من نتائج أدبية عالية ، وذلك أن كل حاجة منها هى بمثابة رابطة جديدة تزيد

انضمام الناس بعضهم إلى بعض ، لأن نيلها لا يتأتى إلا باشتراك مجموعهم فى إيجادها . ومن هنا ينمو فى البشرية الشعور بالتساعد والترافد . فإن الرجل القليل الحاجات لا يحتاج لغيره ، ولكن يكتفى بنفسه ، وهو ما لا يجب أن يكون بين النوع الإنسانى الذى علق ترقى أفراده على التعاون الاجتماعى .

(**ثانيها**) الحاجات الإنسانية محدودة فى مقاديرها . هذا من الأصول الخطيرة لعلم الاقتصاد السياسى التى تبتنى عليها النظرية الجديدة على قيمة الأشياء . ومؤداها أن لكل حاجة يشعر بها الإنسان مقدارا خاصا لا تتجاوزه الرغبة . مثال ذلك أن الإنسان يحتاج للمواد الغذائية ، ولكن احتياجه إليها يقف منها عند حد لا تتجاوزه ، خلافا لحاجاته الصناعية أى الاجتماعية ، فلا تكاد تجد لها حدا تقف عنده ، فإنك لا تستطيع أن تتخيل مقدار المال الذى يشبع نهمة الرجل المتمدن .

(**ثالثها**) أن الحاجات الإنسانية متعارضة ، ومعنى ذلك أن الحاجة من الحاجات لا تحصل إلا بملاشاة حاجة أخرى أو امتصاصها . وهذا قانون اقتصادى خطير يبتنى عليه إمكان إصلاح الأمة بواسطته . وذلك بإنشاء احتياجات عالية للأمة لتبيد احتياجاتها السافلة . وقد شوهد أنه يمكن الاستعاضة عن عادة مادية بعادة عقلية ، فيمكن إحلال التردد على النوادى الأدبية محل التردد على الملاهى العمومية . والمدار فى الاستفادة من هذه الأصول على الحكومات الرشيدة ، والمعلمين الهداة .

(**رابعها**) الحاجات الإنسانية متآلفة . هذا الناموس يظهر بادئ بدء أنه مناف للتقدم ، وليس هو كذلك . فالناس من ناحية العمل أليسوا متزاحمين ومتآلفين فى وقت معا ؟ فالتخالف يوجد بين الحاجات التى تطلب لغرض واحد ، لا بين الحاجات التى تطلب لأغراض شتى . فحاجة الإنسان للتغذى من نوع من الأغذية تتعادى وحاجته لنوع آخر منها ، ولكنها تأتلف مع حاجته للخوان والكرسى والفوطة والسكين إلخ .

(**خامسها**) الحاجات الإنسانية تميل لأن تصير عادات راسخة ، أو كما يقال طبيعة ثانية ، وهذا له قيمة كبيرة بالنسبة لأجور العملة . ذلك أن الإنسان متى ارتفع إلى مستوى من العادات صعب عليه أن ينحدر عنه فجأة . فلقد مضى زمن كان

العامل الفقير لا يلبس الأبيض ، ولا يضع فى رجليه حذاءين ، ولا يتعاطى القهوة ولا التبغ ، ولا يأكل اللحم ولا خبز القمح ، ولكنه أصبح أسير هذه الحاجات الآن بحيث لو صار غير قادر على توفيتها فجأة هلك لا محالة .

ولو أضفنا إلى هذا أن العادة متى مر عليها فى الأمة أجيال متعاقبة ، رسخت فى الأعقاب بالوراثة ، وشعرت الحواس بضرورتها شعورا كبيرا ، من هنا تعلم خطر تلك السلطة الاستبداية التى تكتسبها الحاجة ، وإن ظهرت فى أول أمرها هينة لا تذكر .

(**سادسها**) أن بين الحاجات التى تطورت إلى عادة راسخة فى الأمة ، وبين العادات التى تنشأ حديثا منازعة قوية وحربا طاحنة ، نتيجتها تلاشى عادات قديمة وقيام عادات جديدة على أنقاضها . وهذه العادات الجديدة قد تكون أرفع من القديمة أو أحط منها .

هذا الناموس الطبيعى يمكن الاستفادة منه فى ترقية الأمم بإنشاء حاجات جديدة لها ذات أغراض شريفة ، وتقويتها بحيث تصبح فيها عادة أو طبيعة ثانية ، ومتى تم ذلك فى عدة خصال عالية القيمة ، حفزت الأمة إلى باحات الشرف والكرامة بدوافع ذاتية لا أثر للتصنع فيها ، وكان حظ الجماعة من ورائها عظيما للغاية .

من هنا يرى القراء العلاقة الوثيقة الموجودة بين الحاجات الاقتصادية وبين الشئون الاجتماعية ، فالرجل الذى يتندب لترقية نفسية أمته ، لا يجوز له أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا ألم بجميع هذه الأصول المقررة لئلا تكون تعاليمه ضارة بدل أن تكون نافعة . وكثير من المصلحين يفشلون لإغفالهم هذه الحقائق العلمية .

الذى نلاحظه على أكثر الذين يتندبون لإصلاح الجماعات ، سعيهم المتواصل لتقليل حاجات أفرادها ، وتبسيط معيشتهم ، توهما منهم أن ذلك يحفظ عليهم صحتهم وأموالهم ، ويحصر همتهم فى وجهة واحدة وهى الترقى ماديا وأدبيا . فلو قدرنا لهؤلاء المصلحين نجاحا ، لرأينا أنه قد ابتنى عليه فساد اجتماعى كبير ، تظهر آثاره فى تدهور الصناعات ، وانحطاط الفنون ، والنتيجة الطبيعية لهذا ، قلة الأعمال وانتشار البطالة واشتداد الفاقة على الطبقة الأخيرة من الأمة ، ومتى جاعت هذه انصرفت إلى التلصص والسلب ، وارتكاب الجنايات ، واللجأ إلى دعاة المذاهب الانقلابية .

من هنا يدرك الناس حكمة الإسلام فى تحليله متع الحياة ما دامت فى حدود الاعتدال ، وبعيدة عن المآثم والعدوان . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَياةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وفى الحديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وقد آنسنا اعتراضا من بعض الجماعات على هذه الرخصة ، زاعمة أن مهمة الدين الحث على الزهادة والاخشيشان ، وتكريه الناس فى متع الحياة ولذاتها ، فكيف يبيحها الإسلام إلى حد أن يُنزل فيها قرآنا . وإنى لأظن أن القراء قد فقهوا الآن ، بعد ذكرنا لمكان الحاجات من شئون الاجتماع ، أن هذا التنويه وراءه من الحكمة ما لا يستطيع أن ينكره إلا متعنت . فلو كان الإسلام سام أهله الاخشيشان فى المعيشة ، والقناعة من المصنوعات بما يسدالحاجة منها ، وزهّدهم فى الدنيا حتى كرهوا كل متعها ولذاتها ، لما قامت لهم جماعة ، ولا انتظمت لهم حياة ، ولا ازدهر لهم علم وتلألأت لهم مدنية . ولكنهم كانوا يَجْلون عن الأرض بعد جيل أو جيلين من قيامهم ، غير تاركين وراءهم إلا ما تتركه كل جماعة لم تنتفع بوجودها ، ولم تستفد من مواهبها .

من أجلّ ما نلفت إليه نظر القارئ – ونحن بصدد هذه المعجزة العلمية للكتاب – أن الله سبحانه وتعالى قد علم ما سيقال فى ترخيصه فى نعيم الحياة وزينتها من الاعتراضات التى مثارها قصر النظر ، فذيل الآية بما يشعر بأن هذا الأمر سوف يدركه الذين يعلمون الحقائق ، ويذيعونها بين الناس ، مضيفين به إلى معجزات القرآن معجزة جديدة ، فقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (*) .

* * *

---

(١) سورة الأعراف : ٣٢ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ هـ ، (صفحة ٣٥١)

نظرات فى المذاهب المتطرفة
الشيوعية وسوء آثارها فى الهيئات الاجتماعية

- ١ -

بعد وصول الإنسانية من المستوى العقلى إلى درجة تسمح لها بالتفكير فى وسائل تحسين حالتها الاجتماعية ، عُنى أفراد من أهل البصر منها بتخيل نظم ظنوا أن الجماعات لو قامت عليها ، وأخذت بأصولها ، تتأدى إلى حالة أرفع مما هى عليها فى حياتها الراهنة .

ولكن حياة الشعوب الاجتماعية تقوم على سنة طبيعية ثابتة من التطور التدريجى ، فلا يستطاع نقلها من حال إلى حال بنظام يُبتكر أو ببرنامج يُتخيل . ومن هذا القبيل كانت جمهورية أفلاطون ، وسياسة أرسطو ، والمدينة الفاضلة للفارابى ، وكل ما حدث فى القرون المتأخرة من المذاهب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية . فمن أراد أن يعرف ما يفعله إطلاق العنان للخيال فى هذا المجال ، فلينظر فى الأصول التى تقوم عليها هذه المذاهب . فقد أتى كثير منها بأمور يأنف الضمير البشرى أن يعيرها التفاتا ، كرأى بعض الفرق الاشتراكية إبادة جميع الضعفاء وأصحاب العاهات حتى لا يبقى إلا الأقوياء على مكابدة الأعمال ، كى لا يكون المرضى والضعفاء عالة على المجتمع ؛ وكنُصح بعضها أن يُحذف الزواج ويجعل جميع النساء لجميع الرجال ، وما يولد من هذه المخالطات تستولى عليه الحكومة ، وتربيه على نفقتها ، ثم تقذف به إلى المجتمع ليؤلف جيلا جديدا ، وهلم جرا ؛ وكنحتيم بعضها وجوب حذف الحكومة والدواوين وترك الناس لأنفسهم ينظمون شئونهم عرفيا ، زاعمين أن النواميس الطبيعية فى تدبيرها العلاقات بين الناس ، خير من النظم والقوانين التى تضعها الحكومات . قيل كل هذا وكتب ؛ ولكن الأمم جرت على سجيتها ، مكتنفة بالعوامل المحيطة بها ، ولم ترفع بهذه الخيالات رأسا !

الأمر الذى تقوم عليه فتنة غلاة الاشتراكيين هو دعواهم أن الفاقة المنتشرة بين الدهماء منشؤها سوء توزيع الثروة الاجتماعية ، وأنهم قد هُدوا تحت ضوء العلوم الاقتصادية إلى نظم لو اتُّبعت لعاش الناس جميعا فى بحبوحة الرغد والرفاهية . وأشد هذه المذاهب تمدحا وتزيدا الشيوعية ، وقد وقعت فى حبائلها جماعات فازدادت تغلغلا فى العُدم والجاهلية .

ونحن إن اختصصناها بالكلام فى هذا البحث فليس ذلك باعتبار أنها شكل حكومى لأمة بعينها ، ولكن باعتبار أنها مذهب أصبحت له دعوة ودعاة يروِّجونه ما وجدوا آذانا تصغى إليهم .

الأصول التى تقوم عليها الشيوعية :

المذهب الشيوعى يقوم على أصول ثلاثة رئيسية :

(**أولها**) محو الملكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل أرض الأمة وكل ما عليها ملكا لجميع أفرادها على السواء .

(**ثانيها**) حذف رءوس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قيِّمة عليها .

(**ثالثها**) استئصال شأفة الدين من المجتمع ، باعتبار أنه ألد أعداء الشيوعية ، لتسلطه العظيم على عقول العامة ، وبثه فيها مبادئ تناقض إيجاد الفردوس الأرضى فى زعمهم .

ونحن نناقش هذا المذهب الحساب فى كل هذه الأصول ، لنثبت للناس أنه لا يخالف العلم فحسب ، ولكنه يخالف الأوضاع الطبيعية أيضا ، ويحاول هدم جميع البواعث التى تعمل على حفظ الإنسانية وترقيتها ، سواء أكانت مادية أم أدبية .

أما أول هذه الأصول وهو محو المِلكية الفردية ، فمناقض للوضع الطبيعى ، فإن أول ما كان عليه الناس أيام همجيتهم الأولى كان عدم المِلكية ، لانحصار العناية فى أمر واحد هو الحصول على الغذاء ، فكان الأفراد يهيمون على وجوههم فى القفار ليصطادوا بعض الحيوانات ، أو يجوسون خلال الغابات لاستخراج بعض جذور الأشجار . فلما هُدوا إلى استغلال الأرض ، كان كل منهم يزرع ما حول بيته ، والأرض واسعة والناس قليلون .

فلما ارتقى الاجتماع ، وازدادت معرفة الإنسان بالزراعة ، وتميزت الأسر ، وبدأت تتحدد الحقوق ، وُجدت المِلكية ؛ فالملكية ترقٍّ عن حالة الشيوعية التى سبقتها ، وكما وُجدت الملكية وُجد الزواج ، ووُجدت الحقوق والواجبات ، ووُجدت وشائج الاجتماع ومقوماته وحوافظه ، فتركب بعد سذاجته الأولى ، ومن تَركبه نشأت قوة تماسكه ، ومتانة ترابطه ، وشدة مناعته ، وابتنى على هذا التركب كل ما للإنسانية من حظ فى البقاء والاستمرار والترقى إلى أبعد الغايات . ومجرد النظر إلى حالة الجماعات يهجم بك على الفرق بين ما تتجه حالة التركب الاجتماعى ، وما تنتجه حالة البساطة الفطرية . وإنك لتعجب أن ترى جماعات ساذجة التركب لا تزال باقية على ما كانت عليه منذ ألوف السنين ، على حين أن التى ساعدتها الأحوال المحيطة بها على التركب قد بلغت شأوا بعيداً من المدنية . فالملكية ترق عن الحالة الشيوعية ، فإن عادت أمة إليها زايلها جميع ما ابتنى عليها من وشائج الاجتماع وروابطه ومناعاته ، فأصبح رهن ثورة تهب فيه تحلل عناصره ، أو شدة تصادفه تفكك أوصاله . لذلك يضطر القائمون عليه أن يمسكوه فى دائرة الاستقرار الاجتماعى بالقهر والإرهاب ، ويكون هو فى أثناء ذلك سريع التقلب يتربص أن يجد فرصة للتفكك لينتهزها .

وقادة مثل هذه الجماعات الشيوعية إنما يتوخون بمحو الملكية والوراثة ، أن يمنعوا أن يتناول بعض الأفراد من الثروة العامة فوق ما يكفيهم فيدخروه ويحجبوا غيرهم عن الانتفاع به . وما دروا أنهم بهذه الوسيلة التى لن يكون لها أثر يذكر فى تحسين الحالة الاقتصادية للمجموع ، يقتلون فى نفوس الآحاد روح التنافس المشروع ، فيصبح الكافة سواسية فى الفاقة والعُدْم ، ويحرم المجتمع من المشروعات العظيمة التى يتوق إليها ذوو الكفايات العالية طلبا للكسب .

ولا يعترض علينا بأن وجود الحكومة قيِّمة على الثروة العامة ، يكفل حصول تلك المشروعات بواسطة لجان تؤلف لذلك ، فإننا نرد هذا الاعتراض بقولنا : إن فى قيام الحكومة مقام الأفراد والشركات خنقا لعاطفة الإقدام فى نفوس الآحاد ، وإحالة للمجتمع إلى حالة القِصَر الذى ارتقى عنه أمثالها من الجماعات ، فيصبحون فى حاجة ماسة إلى حكم الإرهاب ، وهذا الحكم يقتضى بث العيون والأرصاد ،

فيضحى بعض الأمة رقباء مأجورين على البعض الآخر ، فإذا مر على الأمة فى هذه الحالة ردح من الزمن أصبح تماسكها الاجتماعى صناعيا بعد أن كان طبيعيا ، وصارت عرضة للتفكك عقب أية هزيمة حربية أو كارثة اجتماعية .

وهم الشيوعية فى تحسين حالة الفقراء بمصادرة أموال الأغنياء :

يستهوى الشيوعيون الفقراء بأنهم سيجعلونهم فى رغد من العيش بحذف طبقة الأغنياء ، ومصادرة أموالهم ؛ وهو وهم كبير لا يطوف إلا برءوس الذين لاحظ لهم من العلم الاقتصادى .

كتب العلامة الاجتماعى الروسى (نوفيكو) فى كتاب له يعالج فيه مسألة الفقر :

« لقد انتشر فى العالم رأى كاد يعم الهيئة الاجتماعية ، وهو أن الفقر ما أنشب أظفاره فى الدهماء إلا بسبب سوء توزيع الثروة على الناس . ويقول أشياع هذا المذهب : إنه متى أخذت الثروة من أيدى المحتكرين لها ، وقسمت على الناس تقسيما عادلا ، ذهب الفقر ، وحل الكفاف ، وأصبح النوع الإنسانى فى أرغد عيش أبد الآبدين .

« فما أجدرنا بأن يهنىء بعضنا بعضا بهذا الحل لو كان حقيقيا ...!

« ولكن الحال وا أسفا ليست على ما يصفون ، فإن الدهماء ليسوا بفقراء لأن بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، ولكنهم فقراء لأن مقدار المواد الغذائية التى تنتجها الأرض لا تكفيهم . ولما كانت هذه الأزمة الغذائية ناشئة من البيئة ، فيمكن أن يقال إن الفقر ضارب بِجِرانه فى العالم ، لأن النوع البشرى لم يعِدّ الأرض للإنتاج إعدادا يتفق ومصلحته الحقيقية .

« الفقر لا يُدفع بواسطة تقسيم الثروة بين الناس لسببين بسيطين :

« أولهما أن المال الذى يراد تقسيمه غير كاف لجميع حاجات الناس ، وقد تقرر ذلك بواسطة الإحصاءات . ذلك أنه لو صودرت الأرباح الفردية التى تزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك وقسمت كلها على الناس الذين يقل دخلهم عن هذا القدر ،

وجد أنه لا يخص كل فرد أكثر من ١٢ فى المائة من دخله الحالى . وبما أن الناس لا يصلون إلى الرغد المرجو إلا إذا كان لكل منهم عشرة أضعاف دخله الحالى ، أدركنا أن مسألة الفقر لا تندفع بتقسيم ثروة الأغنياء على الفقراء .... فإن العامل الذى يكسب الآن فرنكين يوميا ويشكو مر الشكوى من الفاقة ، لن تتغير حاله إذا أعطى الاثنى عشر فى المائة التى تخصه من مصادرة أموال الأغنياء ، إذ أن أجره لن يزيد أكثر من ربع فرنك يوميا ، فماذا عسى أن تحسن هذه العلاوة الضئيلة من حاله ؟

« أما السبب البسيط الثانى فهو ناشىء من طبيعة الثروة ذاتها . ذلك أنه إذا كان دخل المستر بيرمور مورجان الأمريكى ٨٣ مليونا من الفرنكات فى السنة ، فإن صودر هذا الدخل وقسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقل من فرنك ، وماذا عسى أن يعمل هذا القدر الضئيل من تحسين حال الفقير الأمريكى ؟

« ولكن المستر بيرمون مورجان لن يكتسب فى السنة التالية ٨٣ مليونا أخرى لأن الأمة صادرت كسبه الشخصى ، فيكتفى بكسب بضعة آلاف لحاجته الشخصية ، وما يصدق على المستر بيرمون يصدق على جميع الأغنياء ، فإن أفادت مصادرة أموالهم مرة واحدة فلن تتكرر هذه الإفادة ، فمن يسد خلة الفقراء وحاجاتهم تجدد فى كل حين ؟ » .

ثم عمد الأستاذ الروسى إلى بيان العلاج العلمى فقال :

« ثبت لنا من الفصل السابق أن حالة النوع البشرى سيئة جدا ، وأننا فقراء لأن متحصلات الأرض السنوية لا تنتج المقدار الكافى من الغذاء والملبس ، فهل هذا لأن الكرة الأرضية تعجز عن موافاتنا بما هو ضرورى لنا ؟ إن كان الجواب إيجابيا وجب علينا أن نرضى بما قسم لنا ، وأن نعتبر الفقر كما نعتبر الموت أمرا لا محيص منه . ولكن من حسن حظ العاملين أن هذا الافتراض خطأ ، فإن فى قدرة الأرض أن تعطينا ليس ما يوازى ١٠٠٠٠ فرنك سنويا لكل منا فحسب ، ولكن فى قدرتها أن تعطينا عشرة أضعافه ، فإن ينابيع الثروة فيها – كما قال الجغرافى المشهور (اليزيه ركلوز) – لاحد لها على الإطلاق » . انتهى .

نقول : إذا كان هذا هو الرأى العلمى فلا يكون لحذف طبقة الأغنياء من نتيجة سوى قتل عواطف التنافس فى الصدور ، وشل ملكات الإقدام فى نفوس أهل النشاط والقوة الفياضة ، وحرمان مجموع الأمة من جهودهم العظيمة فى إقامة المشروعات النافعة ، والحكم على الكافة بحالة من العُدْم تصل بالأمة إلى مكان سحيق ، وتجعلها تتربص المخلص منه عند كل بادرة من فتنة فتأتى بشر مستطير .

أما وقد رأيت أن الشيوعية لا تستند إلى أساس علمى ، من الناحية الاقتصادية ، وأنها تفكك أواخى النظام الاجتماعى ، وتحلل من ربطه ، وتذهب بحوافظه ، فإننا نرجو أن نثبت لك خطأها فى مناوأة الدين واعتباره سببا فى إثارة العداوات بين الأمم (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، سنة ١٣٥٩ هـ . (صفحة ٣٩) .

- ٢ -

نظرنا فى المقال السابق فى الناحية الاقتصادية من الشيوعية ، وهى الناحية التى يحاولون أن يفتنوا الفقراء من قِبَلها ؛ وقد رأيت أن سيادة هذا النظام الاجتماعى يزيدهم فقرا على فقرهم ، وإذا تمادى بهم حَلَّ وحدتهم ، وأتى على جميع حوافظهم الاجتماعية . واليوم ننظر فى هذا المذهب من ناحية مناهضته للدين ، وهى أخص ما تعنى به هذه المجلة :

عرّف الدينَ موجد الشيوعية (كارل ماركس) الاسرائيلى الألمانى فى بعض كتبه فقال : « الدين عبارة عن تنهدات الجماعات المظلومة » . يريد بذلك أن يقول : لو ارتفع الظلم عن هذه الجماعات لما وجُد الدين .

ويقول الذين يدعون إلى هذا المذهب : « فى كل مجتمع قائم على أساس الطبقات لابد للدين من أن يولد تحت تأثير النير الاقتصادى ، ويكون إحدى قوى الضمير الاجتماعى . أما عندنا فإن الشروط الاجتماعية التى كانت تنشأ عنها الأفكار والعقائد الدينية قد اضمحلت وأصبح الدين كائناً ميتاً لا تأثير له فى الاقتصاد وفى النظام الاجتماعى » .

ونحن نبادر إلى دحض هذه الآراء قبل الانتقال إلى غيرها حتى لا يلتبس الأمر على القارئين :

أما قول مؤسس الشيوعية : إن الدين هو تنهدات الجماعات المظلومة ، فهى عبارة شعرية ليس فيها عبقة من علمى النفس والاجتماع ، فقد ثبت أنه يستوى فى عاطفة التدين المظلومون وغير المظلومين ، بل ثبت أن غير المظلومين من كبراء الأمم وأثريائها وسراتها ، أكثر تدينا من رعاعها وغوغائها ؛ وقد تقرر أن منهم من تنازلوا عن عروشهم وخرجوا عن أموالهم تورعا وتزهدا ؛ وفى الأرض اليوم جماعات غير مظلومة تعيش فى ظلال الديمقراطية الوارفة الظلال ، أشد تمسكا بدينها من الأمم التى تعتبر فى عرف الشيوعيين مظلومة .

وأما قول أشياع الشيوعية من أن كل مجتمع قائم على أساس الطبقات يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادى ، فغير صحيح ؛ فقد ثبت علميا أن الدين تولّد فى الجماعات الأولية الساذجة ، قبل أن يُعرف نظام الطبقات فيها ، بل قبل أن يكون لها جماعة بالمعنى المعروف اليوم . أعنى بهذا أيام كان كل إنسان يعمل لنفسه ولا يسأل عن غيره ، ويجهل النظم الاجتماعية كل الجهل . فإذا كان الشيوعيون يلاشون كل النظم المعروفة فلا يؤملنّ من وراء ذلك أن يسقطوا سلطان الدين ، لأنه لا يستمد هذا السلطان من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت براثن القادة الظالمين ، ولكنه يستمده من أشرف عواطف النفس ، وأكرم غرائز العقل . وقد عرف بالمشاهدة أن الإنسان إذا كانت قواه مستوعَبة فى طلب القوت ، ومحاولاته وقفا على فتق الحيل للوصول إليه ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر فى نفسه ومصيرها ، وحياته وينبوعها ، ولا للفكر فى آدابه ونظامها ، وسيرته وقوامها ، وكثيرا ما أداه شظف العيش إلى الكفر . هذه حقائق يمكن الاهتداء إليها بالمشاهدة ، فإنك حيث تصادف الفاقة والعُدْم تجد خمود الشعور ، وهمود العواطف ؛ وحيث تؤانس اليسار والخفض ، تلفى التوق للسمو الأدبى ، والحنين لاختراق حجب الغيب لتنور الأسرار العلوية . وهل الدين فى حقيقته غير الانتهاء إلى المثل العليا فى الأدب النفسى والمعرفة ؟ وأين هما من الجائع المكدود ، والمعدم اللاصق بالتراب ؟

فإن تخيلت كائنا ميتا تسميه الدين ، فهو عند الجماعات المنكودة الحظ ، الواقعة تحت كلا كل الظلم ، لا عند الجماعات التى نالت حظها من الرغد ، وفرغت من هموم الكد ، ووجدت عقولها وقتا للنظر والتأمل ، واستعدت نفوسها للترقى والتكمل .

ويقول أنصار الشيوعية :

« إن بقاء المعتقدات الدينية يقوّى بواسطة السلطة الإلهية والدينية جميع النزعات الرجعية فى أفكار الناس ، ويستبقى العادات القديمة ، ويعزز الميول العدوانية نحو النساء ، ويخلق شريعة العبودية والتعصب ، ويوطد أصول الرأسمالية » .

نقول : من حسن الحظ أن الذين يقومون بهذه الفلسفة هم فى أوربا لا فى مجاهل أفريقا ، ولا فى سهوب الأقيانوسية ؛ وليس فى العالم مظهر أروع ، ولا مشهد

أكمل ، من الأمثال التى تضربها شعوب أوربا فى التخلص من النزعات الرجعية ، والوراثات التقليدية ؛ وفى تحرير النساء ومنحهن حقوقهن الطبيعية ؛ وفى تحطيم أغلال العبودية ، وفى تلطيف سلطان العصبية ، وتعديل الأصول الرأسمالية ، لتوافق المصالح الاقتصادية ، ولا تتحيف حقوق الضعفاء فى الهيئة الاجتماعية .

لا أظن أن عهدا من عهود البشرية تجلت فيه روح الإنشاء والتجديد فى كل مجال من مجالات النشاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، مثل تجليها فى الغرب فى القرنين الأخيرين :

فقد تطورت العلاقات بين الحكومات والشعوب ، وبلغت أرقى ما يمكن أن تبلغه من الثقة بين حاكم ومحكوم فى هذه الحياة الأرضية .

وتهذبت الصلات بين أصحاب الأموال والعمال ، حتى اعتبر العمل ورأس المال عاملين متساويين فى الحقوق ، فلم يعد العامل مستعبدا لصاحب المصنع ، ولا عالة عليه ، ولكن شريكا له فى الإنتاج . لذلك اعترفت له الحكومات بالنقابات التى تضمن حقوقه الطبيعية ، وتهيمن على مصالحه الاقتصادية ، وسمحت له بالدفاع عن تلك الحقوق والمصالح بكل ما تسمح به لسواه فى حدود النظام .

واندفعت تلك الأمم فى ميدان الترقيات المادية والروحية طليقة حرة ، زارية بالرجعية والرجعيين ، والتقليد والمقلدين ، حتى كادت تقطع الصلة بين القديم والحديث .

وبالغت فى تحرير النساء حتى اتهمت بمحاباتهن ، وبث روح التمرد فى قلوبهن ؛ وليس بعد هذه الدرجة من مزيد إلا إذا أريد قلب الأوضاع الطبيعية بجعل الرجال تحت قيادة النساء ، وليس هذا من الإصلاح فى شىء .

فلا أدرى بعد هذا كله معنى لتبجح الشيوعية بمبادئها الجديدة ، ولم تبلغ الجماعات التى أخذت بها بعض ما بلغته الأمم التى نذكرها ، وكان المعقول أن تعطى العالم مثالا فى تفوقها ، وفى سرعة تطورها ؛ فأى سبْق تدعيه عليها ، وأى تخلف عنها تعيرها به ، وهى لا تحفظ وجودها فى عقر ديارها إلا بسيف القهر ، تقطع به وَتِين كل من تحدثه نفسه برفع نيرها عن عاتقه ؛ وتلك الأمم تعيش فى بحبوحة

الحرية ، لكل منها الحق أن تنتقد حكومتها ، وأن تسقطها وتقيم سواها متى تعدت إرادتها ، لا تعرف حكم الإرهاب ولا يعرفها ، سلطانها الإجماعى فوق سلطان آحادها ، رضيت بهذا الحظ الموفور من كرامتها ، واتجهت لبلوغ غايات المثل العليا بالعلم والعمل على سجيتها .

لعل الذى أطال من لسان الشيوعية ضد الدين إلى هذا الحد ، أن عامة الأمم وجهلتها لا يزالون يدينون بالخرافات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الأولين لا يريدون عنها حولا ، ولكن أصحاب البصر من تلك الأمم يرون ذلك ويدأبون على إصلاحه بوسائل تلائم الطبيعة البشرية ، من طريق ترقية مداركهم ، ورفع مستوى عقليتهم ، كل ذلك مع عدم العدوان على العاطفة الدينية التى اعترفت الفلسفة أنها من لوازم الفطرة البشرية ، وأنها لارتكازها على أرفع مميزات النفس لا يمكن ملاشاتها إلا بإسقاط الإنسان إلى حضيض الحيوانية ، وإلهائه عنها بالمطالب الجسدانية ، وهو جهد محكوم عليه بالضياع ، لأن الفطرة الإنسانية تعود فتتنبه للنظر فى ذاتها وعلاقاتها بالوجود ، فتستيقظ العاطفة الدينية من سباتها ، وتبحث عن مقوماتها من العقائد والتقاليد . فإذا أصر الشيوعيون على مقاومة هذه الميزة الفطرية فى النفس البشرية بالقوة ، أدّاهم ذلك إلى ارتكاب ضروب من العسف تترفع أية حكومة متمدنة عنه .

ولكن لم هذا العداء كله للدين ؟

لو كان كل أمة ذات دين ترزح تحت كلا كله ، ولا تنتعش من كبوتها حتى تتخلص منه ، كان للشيوعيين عذر فى العمل على ملاشاته فى جماعاتهم ، ولكن المشاهد أن الدين لم يمنع ارتقاء الأمم إلى أرفع درجات المدنية فى خلال العهود الإنسانية كلها ، بل شوهد أن منها من لم ينهض بعد جمود طال عليها العهد فيه إلا على يد دين ، كالأمة العربية ، فقد نفث فيها الإسلام روحا عالية ، فأسست أعظم دولة عرفها تاريخ البشر ، وبلغت من المدنية إلى أوج لا يزال مضرب الأمثال إلى اليوم ؛ وهذه الأمم المعاصرة لم تمنعها أديانها ، ولا أوهام عامتها ، من بلوغ الغايات البعيدة من العلم والفلسفة والمدنية . ذلك لأن هذه الأمم الحرة الرشيدة بدل أن تقيد حرية الضمائر ، وتنشىء لحكومتها هما كبيرا من هذه الناحية ، يدفعها إلى ضروب من التعسف ، قطعت ما بين الحكومة والكنيسة من الاتصال ، فاقتصر سلطان العقائد

على الحيز الشخصى ، واتسع للمجتمع بجملته مجال التطور والارتقاء غير مقيد بقيد ، فلم يقف فى توثباته عند حد .

فالمذهب الشيوعى لم يكفه أن تتولى حكومته توزيع الأرزاق على الأفراد ، وتقييد حريتهم فى الاستثمار والادخار ، فخول نفسه فوق ذلك الحق فى تقييد عقولهم ، وحصرها فى دائرة يحدها لهم . وهذه سيطرة لم ترضها الإنسانية من قادة الدين أنفسهم ، فبذلت فى سبيل التخلص منها أرواح أبنائها ، مع أنهم كانوا يريدون أن يمسكوها فى دائرة العقائد الدينية التى تقدسها ولا ترى لها حياة بدونها ، فهل تقبلها من قادة الشيوعية وهم يرمون إلى ملاشاتها ، والتعفية على آثارها ؟

إن الطبيعة البشرية قد أبت السيطرة كما رأيت فيما تهوى ، فهل يطوف برأس متخيل أنها تقبلها فيما لا تهوى ؟

فهذا التورط الشنيع الذى تتكلفه الشيوعية ، وتحتفظ به فى سَيْل عرم من دماء البشر ، فى سبيل اجتثاث جرثومة الدين من قلوبهم ، لا يعقل أن يدوم ولو حققت لهم حلم الفردوس الأرضى ، فليس الإنسان بالكائن الذى إذا امتلأ بطنه بالطعام اكتفى بذلك ولم يعد يسأل عن علاقته بالوجود ، ولا عن المثل الأعلى للحياة ، ولا عن مصيره بعد الموت ، ولا عن غذائه الروحانى الذى يحس بحاجته الماسة إليه . فالشيوعية تريد الإنسان على أن يكون حيوانا لا تبعد همته عن محيط كَرِشه ، وقد خلق إنسانا لا تقطعه الدنيا عن البحث فى حقيقة نفسه ، وعلة وجوده ، وعلاقته بمبدعه . وهل الدين غير هذه الميول الفطرية فيه ؟ فإذا كان من المحال تغيير الفطرة ، فمن المحال كذلك هدم الدين (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، سنة ١٣٥٩ هـ . (صفحة ٩٨) .